رواية

أيام الجفاف



يوسف القعيد

أيام الجفاف

يوسف القعيد

الفهرس

اليوم الأول

"وفيه يصل السيد/ خلف ا   البرتاوي خلف ا   ، إلى مقر عمله الجديد، ويستلم عمله مدرسا بمدرسـة الرزيمـات الابتدائية المشتركة"

- ١ -

الرزيمات.

حوش عيسى ٥ كيلومتر، أبو المطامير ٩ كيلو متر، دمنهور ٣٢ كيلومتر، كفر الدوار ٣٩ كيلومتر.

الرزيمات.

مركز حوش عيسى، محافظة البحيرة.

نزلت من الأتوبيس عن كوبري مرتفع، تحته مصرف مياه راكدة، على مرمى البصر تنام المجموعة الصحية، في بطن الجسر العالي سرت قليلا، في يدي حقيبة صغيرة، فيها (بيجاما وفوطة وصابونة) وأدوات حلاقة وفرشاة أسنان وبعض السندوتشات، في جيبي بعض النقود، وخطاب التعيين.

تراب الأرض مبلل بقطرات الندى، أشجار الجازورين والكافور الرصاصية اللون، تدمع قطرات الندى اللامعة تحت أسلاك الشمس الذهبية، تخرج ذرات البخار الأبيض من أفواه الذين يتكلمون في الحقول، تتصاعد من

المصارف والقنوات والترع. السماء تمتد فوق الرأس صافية، ينداح فيها فراغ صباحي عذب.

مر على ساعي البريد، وكان يرتدي حلة رمادية قديمة، يركب دراجة، يربط آخر بنطلونه بأستك أبيض كي لا يتلوث من الدراجة، لا يسير في خط مستقيم، يحلو له بين الحين والآخر، أن يعبر بدراجته من الناحية اليسرى إلى الناحية اليمنى من الطريق، ويحلو له أن يترك مقود الدراجة، ويتركها لفترة ما، تسير بمفردها، ألقي على تحية الصباح، رددت عليه باقتضاب.

الواقع أن الرزيمات ليست قرية، بل هي عزبة كبيرة، تبعد عن محطة الأتوبيس الذي نزلت منه بحوالي ثلاثة كيلو مترات، وعندما سألت جاري في الأتوبيس، عن المسافة بين المحطة والبلد، اتسعت مساحة البياض في عينيه، وقطب، ولمس جبهته بأصابع يده اليمنى، وحسب وغير، وراجع نفسه وحرك أصابعه، وقال لي: (دي بسيطة، فركة كعب يعني كام متر كدا يعني).

والطريق بين المحطة والعزبة تظلله من الجانبين الأشجار العالية، والرزيمات تسمى هنا البلد، لكونها أكبر من

باقي العزب المجاورة، وتوجد بها المدرسة ومكاتب الإصلاح الزراعي، وسرايا الأميرة سميحة.

نظرات الفضول تلاحقني من كل من يقابلني، أو يمر بي، لم أسأل أحدا، فالوصف الذي ذكره لي أحـد مـوظفي المديرية في دمنهور، كان مضبوطا. في الخامسة صـباحا، استيقظت من نومي. أيقظتني أمي. ولا أذكر أنني نمت هـذه الليلة. فلقد قمت في أمسية ليلة الأمس بجولة واسعة في مدينة المنصورة، وتمشيت حتى طلخا. وعندما عدت، كان المسـاء قد حل، وتغيرت ألوان الأشياء. وقفت في الحـارة طـويلا. عدت إلى المنزل، أخذت حمامـا، دعكـت جسـمي جيـدا بالصابون، وأعددت حقيبتي.

لم أتناول طعام العشاء، بقيت فـي سـريري حتـى الساعات الأولى من الصباح، دون أن أنام، أحسست أن تلك الليلة، ليلة لا تحدث في العمر كله إلا مرة واحـدة، فغـدا، وللمرة الأولى في حياتي، أسافر إلى بلدة لا أعرف عنها إلا مجرد وصف في ذهني، وأترك منزلي، وغدا أستقبل حياتي العملية، كمدرس بوزارة التربية والتعليم.

في الطريق إلى العزبة، لا تبدو السماء مـن فـوق رأسك، إلا من خلال أوراق الأشجار، كمزق صغيرة، وعلى الجانب الأيمن، مصرف صغير، وعلـى الجانـب الأيسـر، حقول مترامية الأطراف، والرزيمات تبـدو علـى البعـد، تغوص في داخل أشجار الكافور والجازورين، فلا يبدو منها شيء تماما، سوى مدخنة عالية، وبعض المباني المتنـاثرة، وبرج للحمام.

في وسط هذا الصمت الصباحي، تـذكرت مـدينتي المنصورة كل صباح، شارع العباسي الطويل، الإفطار فـي المنزل، الخروج، الذهاب إلـى المعهـد، دعـوات أمـي، مشاغبات أختي الصغرى، صمت أبي. حديث أمي كل صباح عن الجيران، والحارة والعطفة والشـارع الكبيـر. زمـلاء المدرسة، الشوارع المزدحمة، السيارات، الفتيات، اللحظـات المختلسة من عمر الزمان، الكلمات الباهتة المعنى، العواطف المترهلة. فكرت في حجرتي الصغرى، التي تطل على آخر عطفة أغا، البلاط المضلع، مياه الاستحمام، رائحة البخـار، الفجوات بين بلاطه وأخرى. أحسست بنوع من الألفة، بسيط

وساذجة، للطوب الأحمر والأسمنت والحديد والخشب الـذي تتكون منه شقتنا الصغيرة.

صحوت من نومي متعبا، زرقة خفيفة تطل علي من خلف النافذة، غسلت وجهي، لم أتناول إفطاري، سلمت على أمي وأختي الصغرى وأخي، دخلت حجـرة نـوم والـدي، صافحته، قبلت يديه، بدت لي، وأنا أودعه، تجاعيد الزمـان واضحة في وجهه. على باب الشقة، صـافحت أمـي مـرة أخرى، قبلتني، نزلت مسرعا.

- (خلي بالك من نفسك يا خالد).

لم أرد، لابد أن الجيران يسمعون هذه الكلمات الآن، وهم ما زالوا في حجرات نومهم.

- (ابعت لنا جواب أول ما توصل)، ربنا يوصـلك ويرجعك بالسلامة.

سرت بسرعة، مررت بشارع العباسي، وشارع ٢٣ يوليو، ودار ابن لقمان. في المحطة، قطعـت تـذكرة مـن المنصورة إلى دمنهور. في طنطا، غيرت القطـار ركبـت قطارا آخر قادما من القاهرة، ذاهبا إلى الإسكندرية، نزلـت في دمنهور. سألت عن موقف أتوبيس حوش عيسى، أرشدني

أحد الناس إليه، سرت في شارع المعهد الديني حتـى آخـر شبرا، وصلت إلى محطة الأتوبيس، سألت عـن الأتـوبيس الذاهب إلى الرزيمات، قيل لي أن أنتظر علـى الرصـيف الثالث من جهة اليمين، وبعد وقت لم أحسبه، حضر أتوبيس مكتوب عليه دمنهور، الكوم الأخضر، كفر الدوار، عرفـت أنه ذاهب إلى الرزيمات، ركبته، نفضت التراب مـن فـوق آخر مقعد فيه من ناحية اليسار وجلست عليـه، ووضـعت حقيبتي بجواري، بعد نصف ساعة تحرك الأتوبيس، وعندما حضر إلى الكمساري أعطيته عشرة قروش، وطلبـت منـه تذكرة إلى الرزيمات، نظر إلى الرجل بتسـاؤل، خفضـت بصري. أعطاني تذكرة إلى الرزيمات، وقرشـين ونصـف. وطلبت منه أن يدلني على الرزيمات حال وصـولنا إليهـا؛ حيث إنني غريب.

- (ما هو باين عليك).

ثم تساءل:

- أنت رايح لمين هناك.
- أنا معين مدرس في مدرستها.
- أهلا وسهلا.

ويبدو لي الناس هنـا طيبـين، بسـطاء، سـريعي التعارف، فلقد أقبل علي، وحدثني كثيرا، وعلى الرغم مـن التعب والإرهاق، والرغبة في أن أغفو قليلا، جلست خلـف النافذة متنبها، ونظرت إلى كـل الأشـياء، وسـمعت كـل الأصوات، ورحت أمسح العالم أمامي بنظرات تشي بحـب الاستطلاع.

- الرزيمات، الأستاذ اللي رايح الرزيمات.

هببت من جلستي، نزلت بسـرعة، خوفـا مـن أن يتحرك الأتوبيس، ولكن البطء الناتج عن شكل الحياة هنـا، وهو سمة كل شيء، توقف الأتوبيس تمامـا، ونـزل منـه السائق، وملأ (صفيحة) معه بمياه من مصرف للمياه الراكدة، وفتح مقدمة السيارة، وراح يصب فيها المـاء بـبطء، أمـا المكان الذي نزلت فيه فهو يسمى الرزيمات المحطة. شكرت الكمساري، الذي نزل هو الآخر، وراح يتمشى على النجيـل الأخضر، وسرت.

لقد أصبح هذا الكمساري، فيما بعد، واسمه فتـوح، صديقا لي، وفي البداية، كان يحضر لي مـا أحتاجـه مـن دمنهور. وبالتدريج، أصبحت أطـل علـى الحيـاة خـارج

الرزيمات من خلاله، وكنت بمجرد أن ألقاه، أسأله السـؤال التقليدي: (إيه أخبار الدنيا؟) فيحكي لي كل شيء في كلمـات باهتة، والسيارة واقفة، والسائق يسقيها أو يبول بالقرب منها.

عندما وصلت إلى الرزيمات البلد، سألت عن مكـان المدرسة، أجابتني سيدة متوسطة العمـر، بلهجـة عربيـة، وكانت تلف وسطها بشال ثقيل، وتغطـي وجههـا بطرحـة سوداء: إن كل هذه البيوت، وأشارت إلى العزبة، مسـاكن. وإن المكان الوحيد الخالي، هو هذا القصر وأشارت إلى مبنى ضخم، تفوح منه رائحة القدم، وتحيط به الأشجار مـن كـل ناحية على شكل مربع، كأنها حرس ليلي، ثم سارت المـرأة في طريقها.

اتجهت إلى القصر، وكانت كل أبوابه ونوافذه مغلقة، وهو بني على مكان مرتفع عن سطح الأرض، ويؤدي إليـه سلم عريض من الرخام الناصع، توقفت أمـام أول درجـات السلم. مسحت أركان المكان الأربـع بنظـرة يقطـر منهـا التساؤل والحيرة. برز من وسط الأشجار المحيطة بالقصـر شخص في يده فأس، وفي يده الأخرى، ديدان طويلة حمراء،

عرفت عندما اقترب مني، أنها طعم يستخدم في صيد السمك، سألته عن المدرسة التي هنا، قال لي وهو في نفس موضعه.

- انده بس وقول يا عبد الغني. وعندما بـدا علـي التردد والخجل، من فكرة رفع صوتي، قام هو بهذه المهمـة نيابة عني، ولما لم يجد أي رد، صعد درجات السلم الـثلاث عشرة[١] وطرق على الباب الكبير. وبعد وقت، فتح البـاب، وخرج من الداخل رجل طويل، يرتدي جلبابا مقلما، وطاقية من الصوف الأزرق الغامق، وشبشبا، وعلى وجهه بقايا نوم.

قال له الرجل:

- اللفندي دا عايزك.

وقبل أن أنطق فوجئت به يقول:

- أنت لازم سيادتك الأستاذ خلف ا البرتاوي.

هززت رأسي دليل الموافقة، نزل الدرجات بسرعة، تقدم إلي، صافحني بحرارة كأنه يعرفني منذ سنوات، حمـل حقيبتي وهو يقول:

- اتفضل ما هي دي المدرسة.

---

[١]) عرفت عددها من خلال صعوده البطيء.

سألته ونحن نجتاز الردهة إلى القصر، عن الأسـتاذ الناظر، والزميلات والزملاء، وكنت قد تصورت، منذ تسلمي خطاب التعيين، والذي ورد لي بالبريد المسجل، أنه ما دامت المدرسة مشتركة، فلابد من وجود مدرسات، وقطعا بعضهن آنسات، ومنيت نفسي ساعتها بالكثير، قصة حب، زيـارات لدمنهور، لقاءات مبللة بالشوق، كلمات ملتهبـة، عواطـف حارة، وقبل، وخلافه.

لكن مفاجأتي مذهلة، حين أخبرني أن المدرسة مـن ذات الفصل الواحد، وأنه لا يوجد فيها سواه، فهـو الفـراش والخفير، وأنها لم تصبح مدرسة بعد، وأنه باقي على افتتاحها بالشكل الرسمي، قرابة شهر، وأنني أعتبر المدرس الوحيـد فيها، وأنني سأقوم بعمل الناظر والمعاون والسكرتير وأمـين العهدة.

قال عبد الغني، ونحن نتوقف في إحدى الصـالات، أنه يستحسن أن يناديني من الآن بحضرة الناظر، وأن أُقّـدم إلى كل من في العزبة على أساس ذلك.

لم أرد عليه بكلمة واحدة.

- ٢ -

قال لي عبد الغني، وهو يصنع لي الشاي. بعـد أن تناولنا، أنا وهو طعام الغداء، علب سلمون وسلاطة، تكفـل هو بإحضارها من حوش عيسى، على نفقته، وعندما حاولت أن أساهم في ثمن الطعام، رفض ذلك، واعتبرها إهانة لـه، وقال وهو يبتسم في إحساس متورم بالذات، أن هذه الأكلـة عزومة سريعة، وإن كانت لا تناسب المقام.

قال عبد الغني، بكلمات بطيئة، وبصوت أقرب إلـى الهمس، كمن يفضي لي بسر من الأسرار: إن هذه السـرايا بنيت من زمان مضى خصيصا للأميرة سميحة ابنة السلطان حسين كامل، وهنا توقف عبد الغني قليلا، وأخرج من جيبـه محفظة جلدية قديمة، فتحها بعناية، وأخرج من جيب داخلـي لها، قطعة من ذات القرش صاغ، مثقوبـة مـن المنتصـف تماما، مكتوب عليها اسم السلطان حسين كامل، قدمها لـي، تحسستها بيدي، وكانت قطعة فضية قديمة، متآكلة الأطراف، باهتة المعالم، شبه ممسوحة، تأملتها وأعطيتها له.

قال عبد الغني، إن الأميرة سـميحة، باعـت هـذه السرايا إلى ماتوسيان[٢] صاحب شركة الـدخان المعروفـة، وسميت العزبة بعد البيع، باسم عزبة ماتوسيان، وان ظلـت السرايا، تسمى باسم سرايا الأميرة سميحة.

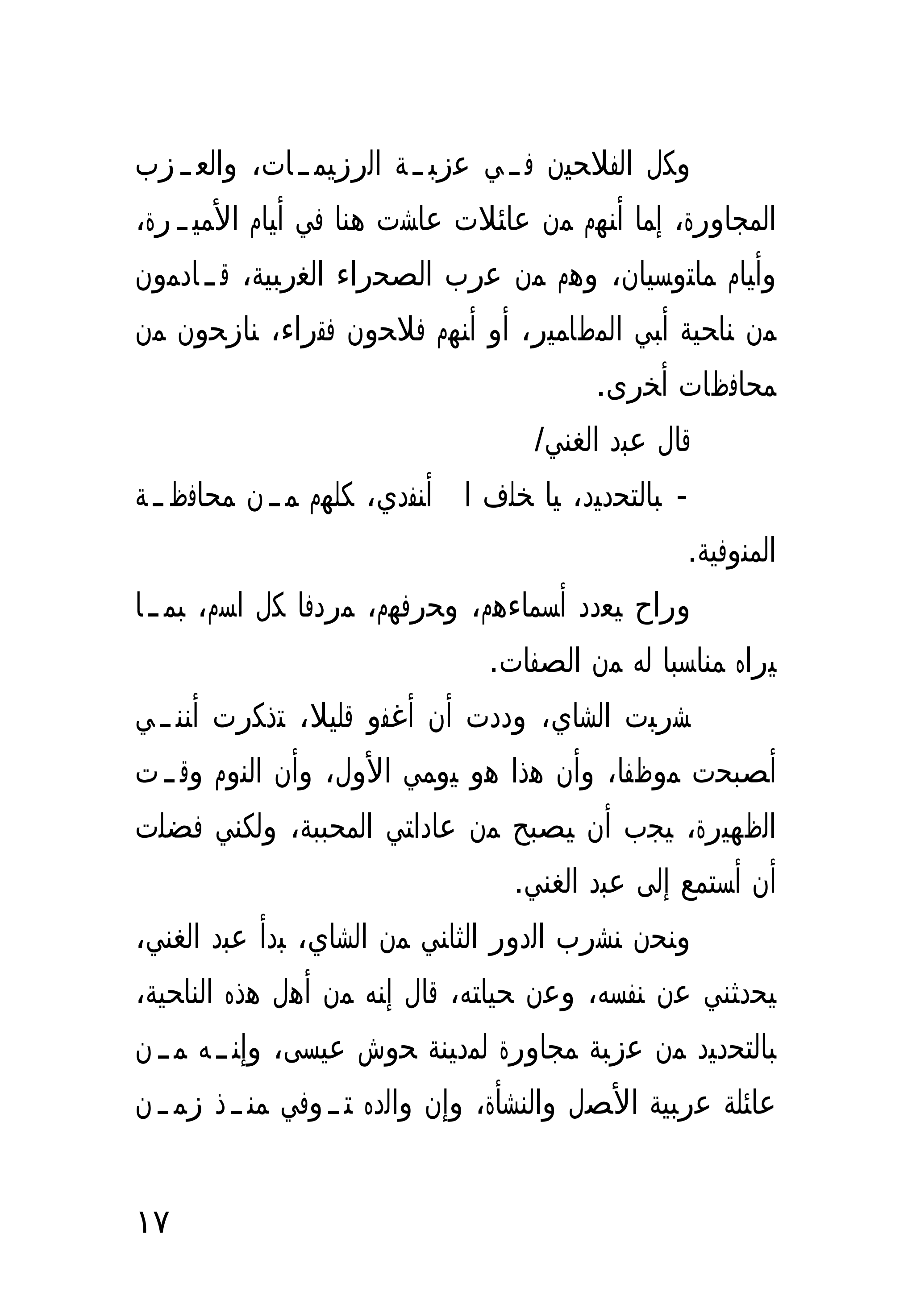
والعزبة مساحتها أربعمائة فدان، من أجود الأراضي في الناحية، وقد آلت ملكيتها إلى الإصلاح الزراعي، وسميت بعزبة الرزيمات، وإن كان لا يملك تفسيرا مقنعا لهذه التسمية الأخيرة[٣].

وقد لاحظت فيما بعد أن بعض الناس هنا، يسـمون هذا المبنى القصر، وهم الذين عاصروه من قديم، والـبعض الآخر يسمونه السرايا، وهم الذين أتوا إلى هذه الناحية حديثا، وفي كل مرة، كنت أسمعهم يقولون عنها السرايا، وتتكسـر نظراتي المرتعشة على لونها الأصفر الفاتح، كانـت نفسـي تزداد انقباضا، وتسرع دقات القلب، ويجف الحلق.

---

[٢]) نطقها هو مستيان.

[٣]) عرفت فيما بعد، أنها سميت بالرزيمات، نسبة إلى قبيلة عربية، سبق أن أقامت بها في الزمان القديم.



وكل الفلاحين فـي عزبـة الرزيمـات، والعـزب المجاورة، إما أنهم من عائلات عاشت هنا في أيام الأميـرة، وأيام ماتوسيان، وهم من عرب الصحراء الغربية، قـادمون من ناحية أبي المطامير، أو أنهم فلاحون فقراء، نازحون من محافظات أخرى.

قال عبد الغني/

- بالتحديد، يا خاف ا أنفدي، كلهم مـن محافظـة المنوفية.

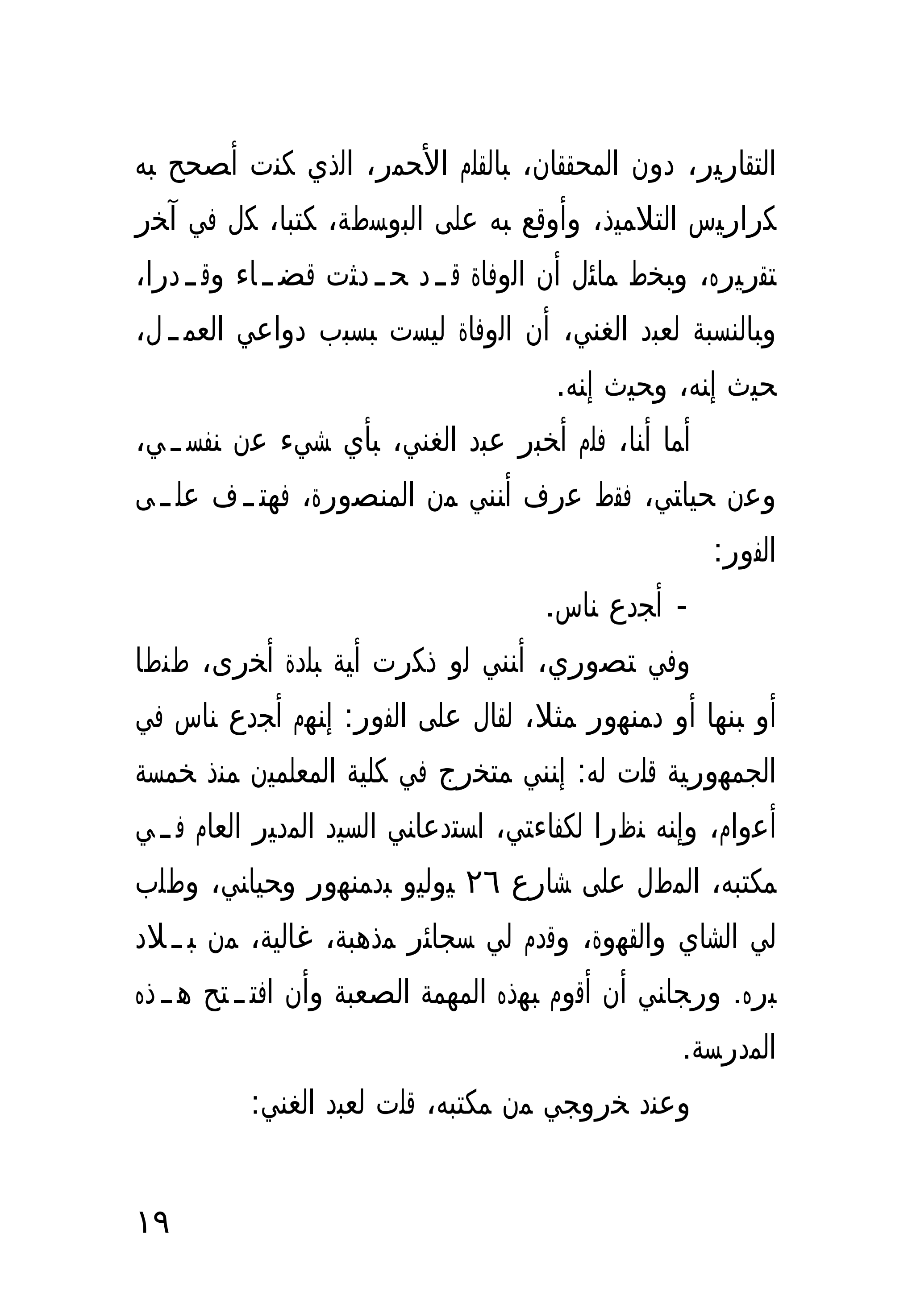
وراح يعدد أسماءهم، وحرفهم، مردفا كل اسم، بمـا يراه مناسبا له من الصفات.

شربت الشاي، وددت أن أغفو قليلا، تذكرت أننـي أصبحت موظفا، وأن هذا هو يومي الأول، وأن النوم وقـت الظهيرة، يجب أن يصبح من عاداتي المحببة، ولكني فضلت أن أستمع إلى عبد الغني.

ونحن نشرب الدور الثاني من الشاي، بدأ عبد الغني، يحدثني عن نفسه، وعن حياته، قال إنه من أهل هذه الناحية، بالتحديد من عزبة مجاورة لمدينة حوش عيسى، وإنـه مـن عائلة عربية الأصل والنشأة، وإن والده تـوفي منـذ زمـن

مضى، وإنه يعول أمه، وأختًا لم تتزوج بعد وأختًـا أرملـة، مات عنها زوجها في إحدى الخلافات بين العائلات هنا، وإنه تزوج من ابنة خالته، غير أن الزيجة لم تفلح، فطلقها، وكـل شيء قسمة ونصيب يا خاف ا أفندي، وإنه عمل قبـل أن يهديه ا إلى هذه الشغلانة في أعمال كثيـرة، لـف ودار، ورست به الأمور، في نهاية المطاف.

وكانت نهاية عبد الغني، في نفس المدرسة. في صالة الرقص، والتي كنا نستعملها مكتبا لي؛ لسـعتها وفخامتهـا، وكان ذلك قبل أن تسوء الأمور بالنسبة لي، وعلى ما أتـذكر الآن، لقد قضيت في القصر عاما، أو يزيد قليلا على العـام، بعد موته، كنا نجري بعض الترميمات في القصر، في سقفه. وكان عبد الغني لتصوره أن المدرسة منزلا له، يزود عامل البناء بإرشاداته، إذ به فجأة، يسقط عليه جزء من السـقف، وعلى عامل البناء، فماتا على الفور. وأذكر أنني ذهبت إلـى المنطقة لسؤالها عن التصرف في مثل هذه الحالـة، وأنهـم أرسلوا معي مستشارا قانونيا، أجرى تحقيقا واسـع النطـاق بخصوص عبد الغني فقط، أما عامل البناء، فلقـد أرسـلت شركته محققا آخر، وفي نهاية التحقيـق الطويـل، الأقـوال



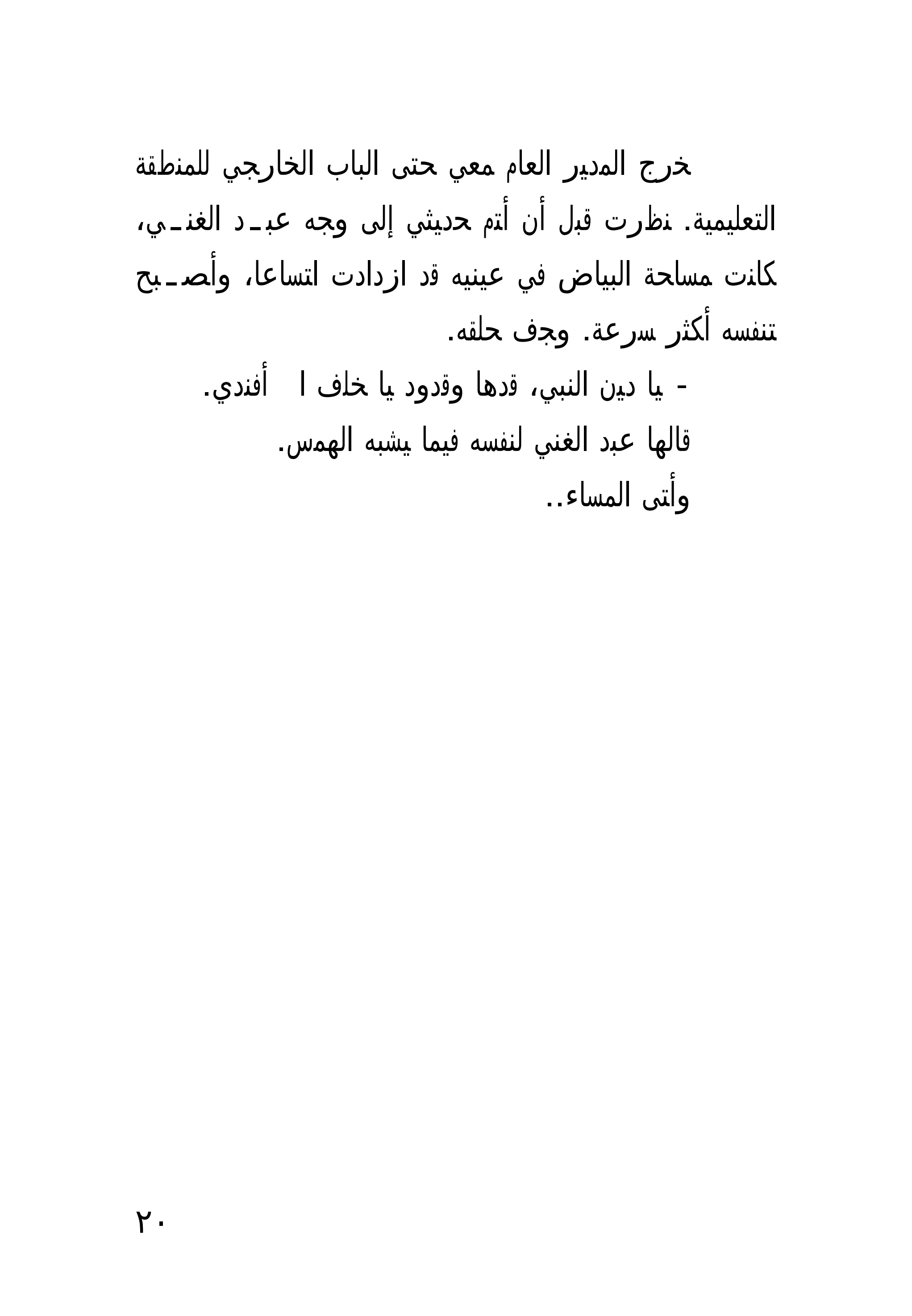
التقارير، دون المحققان، بالقلم الأحمر، الذي كنت أصحح به كراريس التلاميذ، وأوقع به على البوسطة، كتبا، كل في آخر تقريره، وبخط مائل أن الوفاة قـد حـدثت قضـاء وقـدرا، وبالنسبة لعبد الغني، أن الوفاة ليست بسبب دواعي العمـل، حيث إنه، وحيث إنه.

أما أنا، فلم أخبر عبد الغني، بأي شيء عن نفسـي، وعن حياتي، فقط عرف أنني من المنصورة، فهتـف علـى الفور:

- أجدع ناس.

وفي تصوري، أنني لو ذكرت أية بلدة أخرى، طنطا أو بنها أو دمنهور مثلا، لقال على الفور: إنهم أجدع ناس في الجمهورية قلت له: إنني متخرج في كلية المعلمين منذ خمسة أعوام، وإنه نظرا لكفاءتي، استدعاني السيد المدير العام فـي مكتبه، المطل على شارع ٢٦ يوليو بدمنهور وحياني، وطلب لي الشاي والقهوة، وقدم لي سجائر مذهبة، غالية، من بـلاد بره. ورجاني أن أقوم بهذه المهمة الصعبة وأن افتـتح هـذه المدرسة.

وعند خروجي من مكتبه، قلت لعبد الغني:



خرج المدير العام معي حتى الباب الخارجي للمنطقة التعليمية. نظرت قبل أن أتم حديثي إلى وجه عبـد الغنـي، كانت مساحة البياض في عينيه قد ازدادت اتساعا، وأصـبح تنفسه أكثر سرعة. وجف حلقه.

- يا دين النبي، قدها وقدود يا خاف ا أفندي.

قالها عبد الغني لنفسه فيما يشبه الهمس.

وأتى المساء..

ـ ٣ ـ

حضر إلى عبد الغني، وكان الوقت مساء، أخبرني بضرورة النزول لمقابلة عدد من أهالي العزبة، ولما هممت بالنزول، أخبرني عبد الغني بضرورة ارتداء بدلتي الكاملة قبل النزول، ارتديت ملابسي، بدلة كحلية أنيقة، وقميصا أزرقا غامقًا، ورابطة عنق حمراء. حلقت ذقني، صففت شعري بعناية، أمسكت بيدي إحدى كتبي المدرسية، ونزلت إليهم، تسبقني رائحة عطر، توقفت على باب الحجرة التي كانوا يجلسون فيها.

- أهلا بسيدنا اللفندي.

ودخلت.

وقفوا جميعا، العمدة، شيخ البلد، ثم ناظر سابق للزراعة، ومعاون مكتب البريد، وأمين مخزن الجمعية التعاونية، وجدتهم يقفون على شكل صفين. وكانت ظلالهم السوداء على الحائط الخلفي، وجزء منها على الأرض، سرت بينهم تماما، كما يفعل المعزون في المصائب، صافحتهم فردا فردا، أسلمتهم يدي بلا مبالاة، تناولنا كلمات

محنطة لا تفوح منها رائحة عواطف البشر، عرفتهم بنفسي، في كلمات خجولة، سألني أحدهم عن بلدتي، فقلت لهم إنني من المنصورة.

- يعني من محافظة الدقهلية، ومحافظها هو الأستاذ..

سألوني عن حياتي، وأخبار التأميم، ومشاكل التطبيق الاشتراكي، سردت عليهم قصصا متفرقة، ونتفا صغيرة، تلك التي تكون لكل منا عادة، قصة حياته.

أما بخصوص التأميم، والتطبيق الاشتراكي ومشاكله، وتشكيل الاتحاد الاشتراكي، وحرب فيتنام، كل ذلك، لم أتطرق إليه، فمعلوماتي، في هذه النواحي، كانت معدومة تماما.

شربنا الشاي، الذي تكفل عبد الغني بعمله، ودخنا اللفائف، وتحولنا إلى جماعات صغيرة، يتحدث كل عن همومه اليومية الصغيرة، بعد أن استأذنوا وخرجوا، صعدت إلى حجرتي، شعرت بالإرهاق والتعب، إلا أن رائحة الحياة الجديدة، وما تثيره في النفس، جعلاني لا أفكر في النوم،

ولسبب لا أدريه، أجلت كتابة خطاب إلى أهلي في المنصورة إلى الغد.

وفي آخر الليل، كان القمر ساجيا، وكنا فـي فصـل الخريف، خرجت إلى شرفة القصر. بدت لي الطبيعة وسـط شحوب الخريف وسلامه الذي لا طعم له، كأنها تنام بإحـدى مقلتيها، وتنفتح على الحياة والأشجار والناس بالمقلة الأخرى. وكانت السماء صافية فارغة، والأشجار وقد تسـاقطت مـن فوقها الأوراق الخضراء، وبدت الطرقات بين أشجار الكافور والجازورين والتوت وقد امتلأت بأوراق النباتات المتساقطة الجافة.

شيء واحد كان مؤكدا، ظل أثره يعيش فـي نفسـي حتى الآن، وهو معنى السكون الأبدي العميق، سكون يصعد من الحقول المترامية الأطراف، ويهبط من السماء الخريفيـة الساجية.

وكان السكون ينتشر بين نتف الضوء الليلي الباهت.

اليوم الثاني

"وفيه يبدأ السيد/ خلف ا   الرتاوي في التعرف على مظاهر الحياة في الرزيمات، ويـدخل فـي دورة الخريـف والشتاء، ويتشمم رائحة الليل، ويعيش صحوة النهار".



يقع القصر الكبير، قصر ماتوسيان، أو قصر الأميرة سميحة، أو مدرسة الرزيمات الابتدائية المشتركة، عند مدخل الرزيمات تماما. وحوله مربعات من أشجار الجازورين، تبدأ بمربع صغير، وتتسع بشكل مستمر. وأمام مدخل القصـر، ممر موصل إلى الطريق الرئيسي. وعلى جانبي الطريـق، صفان من الأشجار، كأنما قد غرست خصيصا من أجل هذه الطرق.

والقصر عبارة عن دورين، خلفه حديقة صـغيرة، وبمجـرد تسلمي العمل، أصلحت هذه الحديقة بنفسي، وبمساعدة عبـد الغني، وزرعتها أشياء أحتاجها، جرجيرا وفجلًا. في الـدور الأرضي من القصر، خلف الباب الرئيسي، صالة عريضـة. قيل لي: إنها كانت صالة للرقص(٤). ينفتح علـى الصـالة، دورة مياه وحجرة واسعة، كانت تستعمل كمكتـب ومكتبـة، ومكان للقاء صاحبي الحاجات، وأهم ما يميز هذه الحجـرة، كرسي مرتفع، مذهب، مثبت في الأرض، ويتصدر الحجـرة

---

(٤) جميع هذه المعلومات، عرفتها من عبد الغني.

تماما. قالوا عنه "كرسي العرش" وقيل: إن السلطان حسين كامل كان يجلس عليه بنفسه. يتصل بالصالة مطبخ صغير وطرقة توصل الصالة بباقي القصر.

وفي آخر الطرقة حجرتان، قيل: إنهما حجرتا نوم، ملحقا بهما دورة مياه وحمام به بانيو. أمام الحجرتين سلم موصل إلى الدور الثاني وفي الدور الثاني شرفة واسعة، كانت الأميرة سميحة تتناول فيها طعام العشاء في الليالي الصيفية، وكانت تجلس فيها حتى ما بعد منتصف الليل، وضوء القمر الفضي، ينسكب على المكان، كأنه وشاح. في الدور الثاني حجرتان للنوم، ملحقا بهما دورة مياه وحمام، ثم لا تجد إلا السقف، وهو سقف مقوس على شكل جمالون.

قررت أن أنام في الدور الأرضي شتاء، والثاني صيفا. وفي البداية، واجهتني مشكلة الأثاث، فلم تكن معي نقود لشراء أي شيء. غير أن عبد الغني تكفل بحل هذه المشكلة. أحضر لي دكتين من دكك التلاميذ، وضعهما بجوار بعضهما. وفرش فوقهما معا مرتبة، قال: إنه أحضرها من منزله، وبطانية، وأصبح بذلك لي سرير صغير، ولم تكن هناك من متاعب، سوى ذلك الصوت الذي كان ينبعث من

الدكك إذا تقلبت في فراشي أثنـاء النـوم، ومـن المتاعـب الأخرى، أن دورات المياه والحمامات لم تكن تسـتعمل لأن الطلمبة التي كانت تمد القصـر بالميـاه قـد سـطا عليهـا اللصوص عقب تسليم القصر مباشرة، وكانت هنـاك امـرأة تحضر إلينا المياه من طلمبة شيخ البلد. الأمر الآخـر، هـو الإضاءة، والليل هنا ثقيل الخطى، معفر الجبين. فلقد قيل لي أن ماكينة النور قد تعطلت منذ سنوات، واستعملت لمبة جاز نمرة عشرة، هي نفس اللمبة التي كان يستعملها عبد الغني.

في يومي الثاني هنا، حضر إلى مفتش القسم، أفهمني كل ما هو مطلوب مني، وبناء على تعليماته، قمـت بكتابـة إقرار تسلّم عمل لي وحررت لي استمارة ماهيات لي ولعبـد الغني، وأرسلت إلى دوار العمدة في طلب كشـوف بأسـماء الأطفال البالغين سن الإلزام، واتخذت لنفسي مكتبا في صالة الرقص. طلب مني المفتش أن أُكون لنفسي شخصـية، وأن أستعد لمواجهة كافة المشكلات، وحذرني من ناظر الزراعة السابق. وطلبت منه أن يبقى معي لتناول طعام الغذاء سويا، ولكنه اعتذر. أوصلته إلى محطة الأتوبيس، تمنى لي التوفيق

في حياتي العملية الجديدة، وقال إنني أذكره بنفسـه أيـام أن كان مدرسا صغيرا.

عدت إلى المدرسة. عينت مكان فصل التلاميذ، كتبت عليه لافتة بخطي المتعرج، وعينت مكان المخزن، وكنت أود أن أطلب من عبد الغني أن ينام في حجـرة أخـرى، غيـر الحجرة التي اخترتها لنفسي، مراعاة لأصول العمل، وتمشيا مع طبيعة علاقة الرئيس بالمرءوس، ولكنني لسبب أو لآخر. لم أجرؤ على طلب ذلك منه. فقد طلبت منه أن يـدبر لـي معيشتي؛ إذ إنه من غير المعقول أن أظل عالة عليه. أخبرني أنه سيشتري لي كيلة ذرة من السوق، وخمسة كيلو فينو من الدكان، وستقوم أخته بخبزهم لي، فذلك أضمن وأوفر، وأمـا باقي الأشياء فستكون مناصفة بيني وبينه، أراحني حقيقة أنه لم يطلب مني نقودا، وأفهمني أنه سيصرف والحسـاب فـي أول الشهر إن شاء ا .

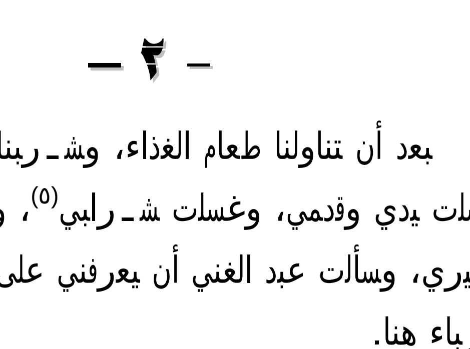
نزلت إلى الفضاء الموجود أمام المدرسـة، اختـرت زاوية منه لتكون فناء، يقف فيه التلاميذ في طابور الصباح. أرسلت خطابا للمنطقة التعليمية، أطلب فيه لافتة كبيرة، ملفتة للنظر، باسم المدرسة، مكتوبة باللون الأبيض على أرضـية

سوداء؛ كي تعلق على واجهة القصر. طلبت أيضـا سـلفة، ودفاتر أميرية، وأوراقًا بيضاء وكربون وكراسات تحضـير وأدوات ترفيه ووسائل إيضاح وأدوات رياضـية. وأرسـلت طلبا لنقابة المهن التعليمية، لاستخراج كرنيه عضوية النقابة خاص بي.

وفي الثانية بعد الظهر تماما، صعدت إلى حجرتـي. غيرت ملابسي، ورحت أنظر من نافذة غرفتي، التي تطـل على الناحية البحرية، وكانت تصعد إلى من الأرض، نسمات هواء لينة طرية، مثقلة برائحة الخصوبة، ونامـت نظراتـي على الحقول الواسعة، وتداخلت الأمور في ناظري، فتاهـت الأشياء وتكسرت ملامحها.

وظلت واقفا في مكاني.

في انتظار أن يحضر عبد الغني طعام الغذاء.



– ٢ –

بعد أن تناولنا طعام الغذاء، وشـربنا الشـاي، قمـت فغسلت يدي وقدمي، وغسلت شـرابي[5]، واسـتلقيت علـى سريري، وسألت عبد الغني أن يعرفني على باقي المـوظفين الغرباء هنا.

- (موظفين مين يا أستاذ؟)

قال عبد الغني.

قلت له، وأنا أحاول أن أتذكر، ناظر الزراعة السابق، عمي فتح ا ، ومعاون مكتب البريد، وأمين مخزن الجمعيـة التعاونية، وطبيب المجموعة الصحية، وباقي الموظفين، قال لي عبد الغني، إنهم جميعا هنا، منذ زمـان مضـى، وقـد انقسموا بعد هذه الفترة إلى فريقين، منهم مـن تـزوج مـن بلاده، وأحضر زوجته، واستأجر لنفسه مسكنا وعاش فيه.

والسكنى هنا عبارة عن منزل من بابه، سافر صاحبه كي يعيش في المدينة، وعلى الأخص مدينة كفـر الـدوار،

---

٥) طلبت مني أمي ذلك، وألحت في الطلب، مراعاة لظـروف الاحتكاك المباشر بالناس.

يعمل هناك غفيرا أو عامل نسـيج أن أسـعده الحـظ، أمـا الأعمال الكتابية، فالباب دونها مغلق؛ لعدم معرفتهم القـراءة والكتابة، والمنزل يؤجر عادة بمبلغ صغير، خمسين قرشا في الشهر، ولا تدفع كل شهر، ونما كل ستة أشهر، أو كل عـام حسب عدد المرات التي يحضر فيها صاحب المنـزل إلـى بلدته للزيارة والسلام والسؤال عن الحال، ورعاية مصالحه، كأرض مؤجرة، أو محراث لم يبعه بعد، أو نورج تسلّفه أحد الجيران ونسيه عنده، أو نصف ساقية عليه خلاف.

وأهل العزبة، يقولون عمن يسافر إلى البندر إن مـن يترك داره، ينهد شرفه، ويقل مقداره، والغريـب أنـه عنـد حضور أحد الذين هاجروا ناحية المدن، فإن أهـل العزبـة يعانقونه، ويبدون له أقصى درجات الود، ويقضون معه ليالي لن تحسب من العمر، في حديث مبلل بالأسى، مثقل بالوجـد عن البندر.

قال لي عبد الغني: إن هناك من الموظفين، من صاهر إحدى العائلات المعروفة في الناحية، وهذا ما حدث بالنسـبة للذين تعرفت بهم بالأمس، أما الدكتور، فرغم أن المجموعـة الصحية، قد تم الانتهاء من بنائها، منذ عامين، إلا أن الدكتور

لم يحضر حتى الآن. ويصل مع معاون مكتب البريد، خطاب بتعيين دكتور، وينتظر الناس هنا، ويقف كل فرد في العزبة، لدى سماعه للنبأ، ويرفع سبابته اليمنى، يضعها على رأسـه، ويتذكر متى مرض آخر مرض، وكيف عـولج مـن هـذا المرض. من داخله أحد اللفندية، قيل: إنه الدكتور، ومعنى أن ينتظر الناس هنا قدوم الدكتور، أن يحاول كـل شـخص أن يرسم في خياله صورة محددة له قريبة من البندر، ويحـاول أن يوهم نفسه، في فراغ هذه العزبـة، أنـه سـبق أن رأى الدكتور بشخصه، وكان جالسا، والوقت شتاء، يدخن النرجيلة في مقهى بشارع المديرية الفخم، ويهمس لزوجتـه، وهـي الوحيدة التي يمارس عليها كل سلطاته: إن الدكتور الجديـد، والذي لم يحضر بعد شديد الشبه بابن خال عمه، المقيم فـي الإسكندرية، في شارع الزهور بحي الحضرة، ثـم يهمـس لنفسه: حكمته، يخلق من الشبه أربعين.

الأيام تمضي، والشهور تمر.

ولم يحضر الدكتور بعد، وكل من يقابل معاون مكتب البريد، يسأله:

- (أمال فين الدكتور يا عم).

وينطلق معاون مكتب البريد، في شرح طويل لمشاكل العصر، البيروقراطية، الوساطة، الجيل الجديد الناعم من الموظفين الذي يكره العمل في الريف، ويسأل الرجل، بعد كل هذا:

- أنا بأسألك عن الدكتور، أنا مالي ومال دا كله؟

ويستمر الحال إلى أن يصل خطاب تعيين آخر، بريد حكومي، صادر من، فيه إلغاء لتعيين الدكتور الفلاني، وبمجرد أن يتم تعيين أطباء جدد، سيعين طبيب على الفور. وهكذا.

- لغاية دلوقتي، يا خاف ا أفندي.

قال عبد الغني.

أما ناظر الزراعة، فبعد إحالته إلى المعاش، ماتت زوجته الأولى، أم أولاده الكبار، تزوج من صبية صغيرة. سافر وأحضرها من بلاد بعيدة، واستأجر خمسة أفدنة من أرض الإصلاح. وبقي في العزبة، يرعى أرضه، ويعلم أولاده، ويحرس زوجته الشابة، ويداوي نفسه بنفسه من مرض السكر، وتصلب الشرايين.

ومعاون مكتب البريد، من الكوم الأخضر، ويحضـر كل يوم إلى هنا بدراجته[٦]، وأمين مخزن الجمعية التعاونية: واسمه صموئيل.

- صماويل أفندي، دا نصراني، وجاب جماعته وعياله معاه هنا.

قال عبد الغني.

قال أيضا: إنه استأجر بيتا، ويشاهد كثيـرا، مرتـديا جلبابا من الزفير الأصلي، وعليه جاكتة قصيرة، وفي قدميه شبشب، يلعب السيجة مع شباب العزبة، ساعة العصاري.

أما في الليل، فله سهرات أخرى: مع العمـدة وشـيخ البلد، يقال وا أعلـم: إنهـم يلعبـون الـورق، ويـدخنون ويشربون، ورئيس مجلس القرية، محام شاب، من أكبر عائلة هنا، عاد من دمنهور، وكثيرا ما يستخدم نفوذ عائلته في حل مشاكل عمله الكثيرة.

---

[٦] حاول عبد الغني، عن طريق إشارات يديـه ولسـانه، أن يقول لي: إن المسافة من هنا، حتى الكوم الأخضر، فركة كعب، ولكني أسكته، قبل أن يقول أي شيء.

قال لي عبد الغني: إن زوجة رئيس القرية، موظفة في دمنهور، وإنه يسافر إليها يوم الأربعاء، من كل أسبوع، ولا يحضر إلا يوم السبت، ويقول الناس هنـا، خاصـة غفيـره الخاص، وفراش مكتبه: إنه يخاف من الست، ولا يستطيع أن يشيل عينيه فيها، ويعمل لها ألف حساب.

الحقيقة، أحسست بعد كلام عبد الغني، الذي امتد مـن بعد الغذاء، حتى نزول الليل، بما يشبه الاختناق، شعرت بأن هناك يدين تحيطان برقبتي، أنني كالغريق، أطلب النجدة ولا من مجيب، وأدركت أنه لا أمل لي، في قيام أية علاقة ودودة مع أحد هؤلاء الموظفين، ولكني قررت، رغم هذا، أن أقـوم بنفسي، بمعرفة كل شيء هنا.

وليكن ذلك من الغد، همست لنفسي.





نزلت إلى حجرة مكتبي، كنت أرتدي بيجاما جديـدة، جلست على المكتب، حاولت أن أكتب خطـابي الأول إلـى أهلي، فردت أمامي ورقة بيضاء مسطرة، أمسكت بالقلم في يدي، كتبت في أعلى الصفحة: بسم ا الرحمن الرحيم، وبه نستعين. الرزيمات بحيرة في مساء يوم، ثم توقفت تماما.

واحترت، ماذا أكتب، هل أكتب والدي العزيز، كـلا، السيد المحترم والدي، أو حضرة المحترم والـدنا. شـطبت، مزقت الورقة، أخرجت ورقة أخرى غيرها، جلست أفكـر.. للمرة الأولى في حياتي، أشعر بوجود والدي، تنبعث صورته الآن في زاوية من زوايا ذاكرتي المعتمة، تنسـال جزيئـات حياتنا، أمي، أختي الحلوة، أخي الصغير، نثر الحياة اليومية، وأجدني، مضطرا لأن أقول: إنني لم أشعر نحوهم من قبـل، بأية عاطفة من أي نوع، كانوا أهلي، عشت معهم طيلة أيـام العمر الماضية غير أني لم أحبهم، ولم أكرههم.

وفي اللحظة التي حاولت فيها أن أكتب لهم رسـالتي، بل هي أول رسالة أكتبها في حياتي، لم أعرف كيف أعبـر

عن نفسي بالكلمات، وهأنذا الآن، أجلس. محاولا أن أكتب رسالتي[7]، كتبتها بسرعة، كلمات بلون التراب، انزلقت من عقلي إلى قلمي، فدونتها على الورق.

"من طرف ابنكم المخلص، خاف ا ".

هكذا أنهيت رسالتي الأولى.

وبدأت عقب رسالتي الأولى. أدخل معهم في علاقة جديدة، بدأت إدراك أن والدي قد تقدم في العمر، وأنه يشكو من روماتيزم في قدميه، وألم في المفاصل، وضعف في بصره، وأن أختي وأخي صغيران، وأنهما لابد أن يكملا تعليمهما، وأن عمل والدي، لا يدر دخلا منتظما[8].

---

[7]) لم يكن لي في الزمان الأول، أصدقاء بالمعنى المعروف، ولم أتراسل مع أي صديق. سوى رسالة كتبها لي زميل، فصيح اللسان، ونحن في المدرسة الإعدادية، أرسلتها إلى الرئيس أطلب منه صورة، موقعة منه شخصيا. كنت صغيرا، لا أجيد التعبير عن نفسي بالكلمات، ولا أشعر بأنه تربطني بهذا العالم، علاقة من أي نوع كان.

[8]) يعمل والدي سمسارا بالسوق العام بالمنصورة، وحالتنا النفسية والصحية والمادية، وشكل معيشتنا يتحسن ويسوء حسب حالة السوق.

فكرت في الخروج، بدا لي ذل غير لائق، صعدت إلى حجرتي، لم أجد عبد الغني، لابد أنه ذهب إلى أهله. جلست في فراشي، حاولت أن أطل من النافذة، فتاهت نظراتي في مساحات الظلام اللانهائية.

وعدت إلى جلستي.

الواقع أن الوحدة، أو العزلة، حالة غريبة. لا يشعر الإنسان فيها بأي شيء، ولا حتى بالألم، ولا ينتظر الإنسان سوى النهاية، نهاية وحدته وعزلته، وكلما أمعنت النهاية في بعدها، أعمق ذلك إحساسنا بها، وانتظارنا لها، وترقبنا لحدوثها.

وكانت النهاية، تبدو في أن يحضر عبد الغني، أو أن أنام، غير أن النوم بدا في هذه الليلة، أملا بعيد المنال، انتظرت عبد الغني، وبدأت الأشياء تفقد شكلها الحقيقي، أصبح السقف أكثر ارتفاعا، وأرض الحجرة مهددة بالسقوط في أي لحظة، والجدران الأربعة تتباعد وتتقارب في نظام ممل رتيب.

وفكرت في أن أحمل اللمبة وأنزل، ولكني بمجرد أن خطوت خطوة واحدة، بدا لي صوت القبقاب على الأرض

الخشبية، مزعجا لحد الضوضاء، وتصورت أن اللمبة لو تحركت من مكانها، فستقع الزجاجة على الأرض، وتنكسر أو تنطفئ فعدلت عن فكرتي.

واكتشف أنني خواف، وأن الظلام يطل علي بعيونه من خلال الباب، حاولت أن أفكر في شوارع المنصورة، إعلانات السينما، صوت الراديو، الأغاني الشجية، الأحاديث، مشاهداتي من خلال نافذة حجرتي لشبان الحارة ومعاكساتهم، المذاكرة، المشي على الأقدام حتى طلخا، العودة إلى المنزل.

- (سوي سرير خاف ا يا بت).

الليل في مدينتي البعيدة، حياة كاملة، سقوط الليل يعني أن نضغط بأصابعنا الناعمة على أزرار في جدران حجراتنا الصغيرة، المبطنة بالخوف، وتضاء الأنوار، الليل في المنصورة، يعني أن ينطلق الرجال إلى المقاهي، ويخرج العشاق إلى الشوارع المظلمة، وأن أفر أنا إلى الشوارع المزدحمة، تحدق عيناي في كل الأشياء.

قررت أن أطلب من عبد الغني، أن لا يخرج ويتركني بمفردي في الليل، ولكني عدلت عن ذلك خوفا من أن يعتقد أنني أخاف من أي شيء، واكتشفت في جلستي هذه، أنني لم

تكن لي أية هوايات، سوى رغبتـي فـي متابعـة النسـاء البدينات، وكثرة التحديق فـي وجـوه النسـاء الـدميمات، والمصابات بنمش أو قشور على الجلد.

وعند مشاهدتي لأية امرأة، فيها هذه المواصفات، أعثر على ضحيتي، وبمجرد أن أجدها، تتسع عيوني دهشة، يجف حلقي، تسرع دقات قلبي، أضع يدي في جيوبي، يصبح عقلي مسرحا تدور عليه حياة كاملـة، ليـالٍ مترعـة بالوصـال، لحظات حب، كلمات شوق، خصام، صلح، وأفضـل السـير خلف المرأة حتى أوصلها إلى منزلها، وأعود إلى حجرتـي وأذكر أنني كنت دائم التجديد، ولم أحاول أن أتـابع امـرأة واحدة مرتين.

ولست أدري كيف أنهيت ليلتي.

وكان السكون كثيفا، لا تستطيع أكثر الأصوات حـدة خدشه، يبعث إلى الأذن بصفير متصل، وكان الظلام يطـل من النافذة، يحدق بعيونه. نمت، وصحوت، ونمت.

وفي آخر مرة وتقلبت فيها من فراشي، لم يكن عبـد الغني حضر بعد.

أيام الجفاف

"وهذه أيام لا يذكر السيد/ خلف ا البرتاوي خلـف ا ، موقعها على خريطة حياته، وفيها يبـدأ رحيلـه الأول والأخير بمفرده، إلى مدائن الأعماق".

"ا ميس"

بدأت في التعرف على بعض الناس هنا.

مصطفى النعاس، يقرأ ويكتب، وهذه ميزة لا يستهان بها، في الثلاثين من عمره، متزوج من امـرأتين، وينـاقش قضايا الساعة، ويحشر في كلماته ألفاظـا باللغـة العربيـة الفصحى، وينوي أن يرشح نفسـه فـي انتخابـات الاتحـاد الاشتراكي العربي، بعد أن يتم تشكيله مباشرة، تعرفت على مقاول الأنفار، وإمام المسجد، والبقال، لاحظت أنهم يقيمـون مسافة بيني وبينهم، والسبب هو وظيفتي كنـاظر للمدرسـة، التقيت معهم في منازلهم، والذهاب إلى المنزل معناه تنـاول الطعام وشرب الشاي وتدخين الجوزة، وتعودت السير فـي طرقات العزبة وحواريها والتسليم على من أقابله، ولا مـانع من تبادل كلمة أو كلمتين، وحرصت في بـادئ الأمـر أن يرافقني عبد الغني في كل جولاتي، ولم أشاهد أسير بمفردي أبدأ في حواري العزبة.

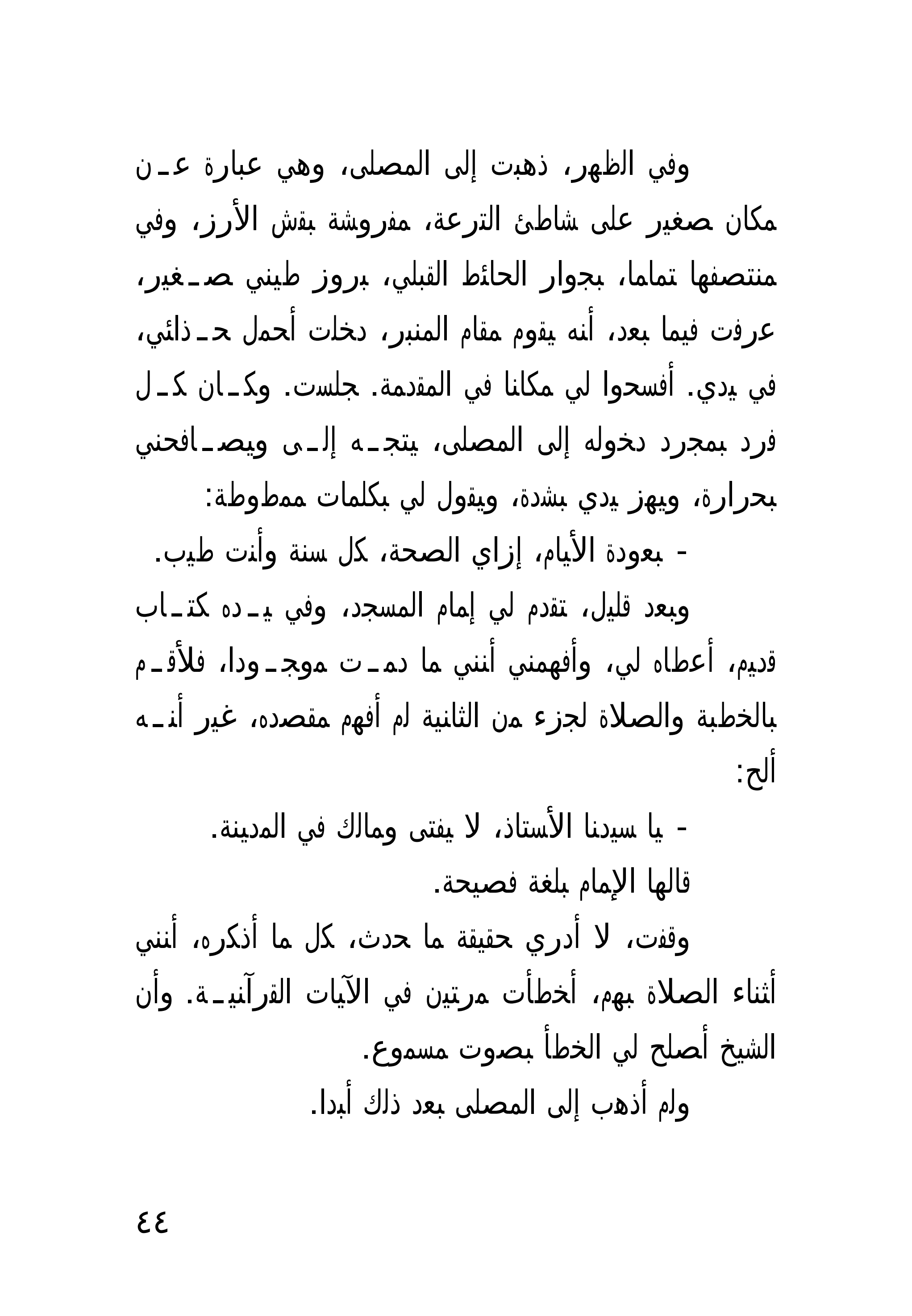
"ا معة"

أرسلت لي اليوم ابنة شيخ البلـد، ونائـب العمـدة، وزوج أخت العمدة، وهي فتاة اسمها عطيات، وإن كنت لـم أرها منذ قدومي إلى هنا، سوى مرة واحدة، وعلى بعد كبير، غير أنني سمعت عنها الكثير، خاصة من عبد الغني، الـذي أفهمني أنها تحبه، وتعاكسه، وترسل له الرسـائل، وهنـاك محاولات من أهلها لجس نبضه من ناحية زواجه منها، ولكن الأيام أثبتت أن هذه التصورات، كانت أحلاما خاصـة بعبـد الغني، دون سواه.

أرسلت لي خلسة، مع شقيقتها الصغرى، وهي تلميذة عندي، كمية من البطاطس، وقليلًا من الأرز، وبعض السمن البلدي.

قالت لي الفتاة الصغيرة:

- أختي بتسلم عليك، وبتقول لك أي خدمة يا خلـف ا أفندي.



وفي الظهر، ذهبت إلى المصلى، وهي عبارة عـن مكان صغير على شاطئ الترعة، مفروشة بقش الأرز، وفي منتصفها تماما، بجوار الحائط القبلي، بروز طيني صـغير، عرفت فيما بعد، أنه يقوم مقام المنبر، دخلت أحمل حـذائي، في يدي. أفسحوا لي مكانا في المقدمة. جلست. وكـان كـل فرد بمجرد دخوله إلى المصلى، يتجـه إلـى ويصـافحني بحرارة، ويهز يدي بشدة، ويقول لي بكلمات ممطوطة:

- بعودة الأيام، إزاي الصحة، كل سنة وأنت طيب.

وبعد قليل، تقدم لي إمام المسجد، وفي يـده كتـاب قديم، أعطاه لي، وأفهمني أنني ما دمـت موجـودا، فلأقـم بالخطبة والصلاة لجزء من الثانية لم أفهم مقصده، غير أنـه ألح:

- يا سيدنا الأستاذ، لا يفتى ومالك في المدينة.

قالها الإمام بلغة فصيحة.

وقفت، لا أدري حقيقة ما حدث، كل ما أذكره، أنني أثناء الصلاة بهم، أخطأت مرتين في الآيات القرآنيـة. وأن الشيخ أصلح لي الخطأ بصوت مسموع.

ولم أذهب إلى المصلى بعد ذلك أبدا.

"السبت"

أرسل لي اليوم، عمي فتحي -ناظر الزراعة السابق- ابنته الصغيرة.

- (والدي بيقول لسيادتك، اتفضل اشرب قهوة).

دهشت.

- (بس لو سمحت تعالَ لوحدك.)

قالت الطفلة.

ارتديت ملابسي، خرجت، وكان الوقت أصيلا، ذهبت إلى منزله، وهو المنزل المواجه للقصر، على الباب، تنحنحت بصوت مرتفع. خرج إلى عمي فتحي، دخلت معه، جلسنا معا في حجرة نومه، حدثني كثيرا عن حياته، ماضيه، عرفت أنه من رشيد، وإن كنت لم أدرك ذلك من وقع لهجته؛ لقلة خبرتي بمثل هذه الأمور ولعدم وجود قدرة على الملاحظة الدقيقة عندي، أخبرني بوفاة زوجته الأولى، وزواجه من فتاة أخرى صغيرة، قريبة له من القاهرة، وأن معاشه صغير، وأولاده كثيرون، وكلهم في المدارس، حتى البنات منهم، وأن الخمسة أفدنة لا تعود عليه بشيء يذكر؛

لأنه يستأجر من يزرع له ويروي ويحصد، ولا يقدر علـى متابعة كل الأمور بنفسه، ويتصور أن العمال يسرقون كـل شيء.

قال لي: إنه مريض بالسكر وتصلب الشرايين، وإن أهل العزبة يكرهونه منذ أن كان ناظرا للزراعة، فلقد كـان يقسو عليهم. قال لي، وهو يتقرب مني، وملامحه يسيل منها الانكسار والأسى، وخطوط وجهه تعطيك انطباعـا محـددا برائحة تنازل الإنسان، مكرها لا بطل، عن كبريائه، وعـن إحساسه بنفسه. قال لي: إنه أرسل في طلبـي، مـن أجـل موضوع صغير، يطلب مني سلفة خمسة جنيهات فقط، إلـى أن يفرجها ا ، ارتعدت، انسالت تحت إبطي حبات عرق لها رائحة الجلود البشرية، خفت، وكان خوفي لسببين، أولهمـا أنني لم يكن معي سوى قروش قليلة، والثـاني، أن مرتبـي الذي سأتسلمه أول الشهر، ليس ملكا لـي، ولا أسـتطيع أن أتصرف في مليم واحد منه[٩]

---

[٩]) أفهمتني أمي، نيابة عن أبي، صباح حضوري إلى هنا، بل طلبت مني بحزم أن أعد كشفا بكل قرش أصرفه، في أي وجه كـان،

اعتذرت له بكلمات باهتة، حركت يدي دلالة علـى الاستسلام لقوة قاهرة، تغتال أعظم ما فينا، وتدفنه في قبـور بعيدة، نبتت حبات عرق لزجة، مالحة الطعم علـى جبينـي، قمت، استأذنت، وفي الصالة، لمحت زوجته، فتـاة رائعـة، وقال لي عمي فتح ا : إنه سينتظرني حتى أول الشهر.

وأنا في الطريق إلى القصر، تـذكرت أن زوجتـه القاهرية صغيرة، وأنه في الستينات من عمره، فمنيت نفسي بعلاقة خصبة مع هذه الفتاة، ورحـت أرسـم كـل شـيء، خاطبتها في الخيال، وأحضرتها معي فـي حجـرة نـومي بالطبع. لم أتصور وجود عبد الغنـي معـي فـي القصـر، وتصورت مكان التخت التي أنام عليهـا، سـريرا فـاخرا، ورحت أجردها من ملابسها، وأفعل بها، ما لم أفعلـه فـي حياتي من قبل.

طاردني عبد الغني بالأسئلة، سبب زيارتي، لم ذهبت بدونه؟ ماذا طلب مني.

- أنا عارفه فتح ا ، دا رجل مش كويس.

وذلك لعرضه على أبي، وكان في صوتها رنة من وجد أخيرا، ووسط التيه، قشة نجاة صغيرة، ولابد من المحافظة عليها.

حذرني عبد الغني منه، قال لي: إنه سيطلب مني سلفة في المرة القادمة، وإن طالبته بها.

- (حا يضرب عليها عوافي، وايش ياخذ الريح من البلاط).

وإن ألححت عليه في الطلب، سيقول عني في العزبة، إنني حاولت أن أعاكس زوجته الشابة الحلوة، وتكون الفضيحة.

- وعليه العوض، ومنه العوض.

تذكرت أن عمي فتح ا ، حذرني هو الآخر من عبد الغني، قال لي: إن لعبد الغني أختا مطلقة، بيضاء وسمينة وحلوة، وإن سمعتها ليست على ما يرام في حوش عيسى، وإن هذا هو السبب في إقامة عبد الغني الدائمة في القصر، وعدم معيشته مع أهله.

وفي الليل، تذكرت ما قاله لي عمي فتح ا ، خلال زيارتي له.

قال إن هذه البلد، لم يعد منها أحد إلى بلده، وكل من يعين هنا، يقضي العمر كله فيها، تتسرب لحظات الحياة، تزحف سني حياته ببطء. قال لي: أنه علي الآن، إما أن أنتقل

فورا إلى بلادتي، حيث المستقبل والحياة السـعيدة والفـرص السانحة، وإما أن أظل هنا إلى الأبد.

قال عمي فتح ا : إن كل الذين حضـروا، عاشـوا هنا، وتغيرت حياتهم، أصبحوا جزءا من الواقع، ذابوا فيـه، وكان من الصعب عليهم بعد ذلـك، أن ينفصـلوا عنـه، أو يثوروا عليه، وقامت بينهم وبين الواقع بكل رتابتـه وملـه علاقة ثقيلة على النفس.

- الحق نفسك يا خاف ا أفندي.

هكذا قال عمي فتح ا .

وفي الليل، يزحف الخوف على الجدران، ويبدو من خلال عيون الظلام، أنه يوجد خاف تلال العتمـة، قـدري، وأدرك أنه قد قامت بيني وبين الحياة هنا، علاقة قدرية ثقيلة.

وفي آخر الليل، أحسست أن الجدران تطبق علـي، وتمتص آخر ومضة من ومضات الحياة في جسدي.

هل سأترك العزبة، وإن تركتها فإلي أيـن؟ وإن لـم أتركها فما المصير إذن؟ هكذا رحت أسائل الليل.

"السبت"

تم افتتاح المدرسة اليوم.

كنت قد أكملت صرف ما أحتاجه من المنطقة، مـن كتب وكراريس، وسبورات ومقاعد وتخت، وعملت كشـوفٍ بأسماء التلاميذ، من سن السادسة حتى التاسعة وثلاثة أشهر، وأخبرت أولياء أمورهم، بخطابات بأسمائهم، بموعد افتتـاح المدرسة، وأطلقت مناديا، قبل الموعد بأسبوع، نـادى فـي حواري العزبة، والعزب المجاورة، ساعة الغروب:

- يا عباد ا ، تقـرر أن يكـون افتتـاح مدرسـة الرزيمات الابتدائية المشتركة يوم السبت القـادم، الموافـق، والحاضر.

يمر المنادي، وهو لحاد العزبة في نفس الوقت، وقت الغروب، وتكون الحواري مزدحمة بالرجال، الذين عادوا من حقولهم وينادي بصوت مرتفع، وبنغمات جميلة. ورغم هذا، فبين الحين والآخر، يوجه إليه شخص ما سؤالًا، استفسـارا بسيطًا، يجيب عليه المنادي بكلمات سريعة، وبإحساس مـن يعرف كل شيء، ويتقاضى المنادي مبالغ بسيطة، والمنـاداة

تكون عن حوادث هامة، موت أحدهم، ضياع دابة، أو فقـد طفل صغير، أو إجراءات انتخابية أو تغيير مواعيد الري، أو تعليمات جديدة من العمدة، أو رئيس القرية.

وفي يوم الافتتاح، حضر رئيس مجلس مدينة حوش عيسى، ورئيس مجلس القرية، مدير عام التعليم الابتـدائي، ومفتش القسم، وافتتحنا المدرسة، بقص شريط أحمر اللـون، عزم رئيس المدينة على المدير، وتنازل له المدير مع بسمة. ألقيت كلمات. ذهبت إلى دوار العمدة، أكلنا، شربنا، تحـدثنا عن تكوين الاتحاد الاشتراكي، وغلو الأسعار، وثورة الـيمن وتحولنا إلى جماعات صغيرة.

واعتبارا من هذا اليوم، بدأ الناس هنا، ينادونني بيـا حضرة الناظر.

ا معة

في هذا اليوم، يزداد إحساسي بوقت الفراغ.

فهذا اليوم، يوم عطلة، أصحو من النوم في الثامنـة صباحا، أستحم، أحلق ذقني، أتناول إفطاري، وأجلـس فـي الفراندا الصغيرة. ومعي ملقاط قديم، ومرآة متآكلة الأطراف، وأقضي الوقت في التقاط الشعيرات التي تحيط بشاربي بعناية شديدة.

وفي الظهر، أتناول طعام الغذاء، وبعد الظهر أنـام، أو أظل جالسا، حاولت أن أجرب القراءة، ولكنـي مللتهـا بسرعة، وفي الأيام الماضية، حاولت أن أجرب الصيد، صيد السمك من المصارف التي تحيط العزبة، اشـتريت سـنارة، وأحضرت بوصة طويلة، وقام عبد الغني، باستخراج طعـم لي، وأقبلت على التجربة في حماس، غير أنـي، كالعـادة، مللت كل شيء؛ لعدم توفيقي في صيد أي شيء من ناحيـة، ولعدم قدرتي على الصبر من ناحية أخـرى. وحاولـت أن أسافر إلى دمنهور كل يوم جمعة، ولكن ميزانيتي المحـدودة حالت دون ذلك.

يبدو لي يوم الجمعة كأنه دهر بأكمله. يبدو طـويلا، تمر دقائقه بطيئة قاسية، يستطيل الوقت، وما أن يأتي الليـل، حتى أمني النفس بالاستعداد للغد، أحضر الدروس، التاريخ، الحصة، المادة، الموضـوع، الطريقـة، وسـائل الإيضـاح المستخدمة، أضع الطباشير على المنضـدة بنظـام معـين، أحضر الممسحة، أكتب التاريخ على السبورة، أعد ملابسي، ألمع حذائي، أكوي رباط عنقي.

ثم أقوم بزيارات مكرورة، تتم للمرة الأولـى بعـد المائة، لبعض البيوت والزيارات لا تتم بمواعيد سابقة، بـل يكفي أن تكون مارا أمام أي منزل، كي يعزمك أهله. ومعنى هذه الزيارة، أنني معزوم على العشاء، مهمـا كـان وقـت الزيارة. ومعنى هذا أيضا، أن عبد الغني لابد أن يكون معي في هذه الزيارات.

"الأحد"

منتصف الليل تماما.

الساعة الثانية عشرة، النجوم الساجية تنتشـر علـى صفحة الليل، الصمت والظلام وهديل الحمـام فـي أعلـى القصر، تدق الساعة في الراديو دقات رتيبة، ينتشر الصوت، يخدش الصمت الليلي، تتلاشى الأصـوات، تـذوب، تبهـت تضحي فاترة في فضاء الليل الواسع.

وفي كل ليلة.

يأتي فأر صغير، في ظهره خط أبيض، يخرج مـن جحر في الركن الأيمن، يدور في الغرفة، يأكل لقمـة مـن الخبز الجاف، يتضخم صوت اصطدام أسنانه بجفاف الخبز، يدور في الأركان الأربعة، يتشمم خشب المقاعـد، ورائحـة البترول المتساقطة على جسم اللمبة، ويغرس شاربه في بقع الدهن المتناثرة على أرض الغرفة الخشبية، تبرق عيناه فـي نور اللمبة.

يعود الفأر إلى نفس موضعه، في الركن الذي ظهـر منه، يختفي، وتكون الساعة الثانية عشـرة وأربـع دقـائق وثلاثين ثانية.

الحقيقة أقول: إنني أحببت هذا الفأر، كانـت معـي ساعة قديمة اشتراها لي والدي، بحالـة مسـتعملة، بعـد أن حصلت على الشهادة الإعدادية، بجنيـه ونصـف، كهديـة لنجاحي، غير أنني، لم أكن أتأكد أن الليل قـد انتصـف إلا بمجيء الفأر، ولم يحدث في أي ليلة أن أخلف موعده معي.

"الاثنـ"

مضى علي الآن، ما يقرب من عام كامل هنا.

فشلت طيلته في إقامة علاقة واحدة، مع أي فرد هنا. وذلك لأني لا أجيد التعبير عن نفسي بالكلمات، وبطيء جدا في إقامة أية علاقات مع الآخرين[١٠].

ولم أكتشف من قبل، أنني أبدو في نظـر الآخـرين ثقيل الظل، وأنني أشكل عبئا بالنسبة لمـن يعرفـونني، وأن دائرة اهتمامي ضيقة، فلا أعرف أي شيء يذكر عن حيـاة الفلاح أو السياسة.

وعندما ألتقي بأحد هنا، يسلم علي في حفاوة، ويتكلم، ثرثرة فارغة، كلمات لا معنى لها، أما أنا، فإنني أشعر أمـام الآخرين، أيا كانوا، بنوع أملس من الخجـل والاضـطراب والحرج؛ ولذا فإني أقف صامتا، أنتظر أن يطلب مني الكلام، وبمجرد أن يطلب مني الكلام، فإنني، بدون وعي مني، أمر

---

[١٠] وهذا راجع إلى ارتباطي بأمي في طريقة فهمـي للعـالم. فأمي تتصور أن كل الناس أشرار. حساد. يسرقون الكحل من العـين، عدا أسرتنا، وأفهمتني أمي ذلك منذ أيام الطفولة الأولى.

بيدي على شعر رأسي الخشن وأمر بأصـابعي، بالتحديـد، بالإبهام والسبابة، على فتحتي أنفي، ثم أمر بيدي على ذقنـي الحليقة، أتحسس بهما بعض الحبوب النابتة من أثر الحلاقة، أتحسس جبهتي، وأتنحنح بحثا عن الكلمات.

ويكتشف الناس هنا، مدى فراغي، فينصرفون عني، ولا يكررون ذلك أبدا، وكل هذا دفعني إلى فعـل أمـرين، وأولهما، كثرة كتابة الرسائل إلى أهلي، كنت أكتب رسالة كل يوم لهم، وكنت أثناء يومي هنا، أبحث عن كل جديد، وأقول لنفسي بمجرد حدوث شيء غريب ونادر، هذا شيء مثيـر، يجب أن أكتبه لهم على الفور، وأصبحت أتتبع كل ما يحدث في العزبة. موت، ميلاد أطفال، منازعات، سـرقات، سـم مواشي، كي أكتبه، وكنت أسأل عبد الغني عن حياته وأهله، خاصة أخته الأرملة، مبديا حزني بسبب مصيرها، كي يقص لي أشياء كثيرة، تكون موضوعات رسائلي.

ولقد دفع هذا عبد الغني، إلى إحضار أخته الأرملـة لزيارته بالمدرسة، وكي أراها فيما أتصور، وكانت جميلـة حقا، بيضاء وممتلئة. وتصورت بعين الخيال، ملمس جلـدها الناعم لو عريتها تماما. ورحت أجوس بيدي على صـدرها

العريض، وجسدها البض، ولكني خفت، ولم أحدثه عنها بعد ذلك أبدا، خوفا مما قد يترتب على ذلك.

أما الأمر الثاني، أنني بدأت في تـدوين مـذكراتي، أصبحت أكتب كل ما يحدث لي، وأقوم بالكتابة، عادة، قبـل النوم مباشرة، في كراسة من كراسات تحضـير الـدروس، أكتب فيها كل ما يخطر على البال، بشكل غير منتظم، وكنت ألاحظ أنني كنت أهتم بكتابة الأسـماء والوظـائف لـذوي المراكز الهامة، الذين أحتك بهم هنا، رئيس المدينة، رئـيس القرية، العمدة، وكيل مكتب البريد، لدرجة أنني كنت أحـس بشيء من الانبهار والقُشعريرة وأنا أكتب أسماءهم.

بيني وبينك، استمرأت كتابة الرسـائل إلـى أهلـي، وتدوين المذكرات. وبدا لي أن ذلك سيبتلع كل ذرات الملـل والتردد الناعمة التي تلون أيامي هنـا، بلـون التـراب. ولا تضحك من ذلك أرجوك، فالإنسان في تصوري، لـيس هـو إمكانية الأشياء التي لم يكنها بعد، بل هو مجمـوع إخفاقاتـه وتعاساته، هو مقدار الأحلام التي وئدت، والآمال التـي لـم تتحقق بعد.

أصبح الآن من أهم عاداتي، أن أحدث نفسي كثيرا، وحديث النفس حالة لا يقع فيها إلا من خلا عالمه مـن كـل شيء تقريبا، ولم يبق له سوى نفسه. وفي كل حديث، كنـت أشرح أحداث اليوم المنصرم، أحلم، أتمنى، بل أنتقم، وأعيـد في هدأة الليل، تنظيم يومي من جديد، وأحذف وأعـدل كـي تستوي كل الأمور.

وفي كل مرة، لم يكن من عيوبي أنني لم أكن بقادر على تقديم ردود فعل محددة وفورية، لما يواجهني به الواقع، فعندما يشتمني شخص ما، كنت أصمت، أتصنع بسمة باهتة، وأوهم نفسي في الخيال، بأن التسامح فضيلة كبيرة، وأحسـن الصفات المطلوبة في هذا العصر.

غير أني في الليل، أتذكر ما حدث، أعيـد خلقـه، وأشعر بالإهانات، وأدرك أنني لم أكن رجلا، وأننـي كـان يجب أن أفعل كذا، وأقول كذا، وأقرر بيني وبين نفسـي أن أغير من سلوكي، وأن يصبح موقفي أكثر حسما تجاه العالم.

وتأتي الأيام، وتوجه لي الإهانـات، يـتهجم علـى الناس، ولا أرد، وفي صمت الليل، أنقد نفسي، وهكذا. وبعد كل شيء. الصراع، الخصومات، عبارات الحـب، أهمـس،

قبل النوم مباشرة، هذا حسن، أن كل شيء على مـا يـرام. ولكن من المؤكد، أنني في كل مساء، فـي لحظـة الغسـق الحزينة، أرفع عيوني نحو السماء، تتغرس نظراتـي، علـى المدى البعيد، في الفضاء اللانهائي الشاحب، أحسب سـنوات عمري التي مضت، أعدها بفتور علـى أصـابعي، واحـد وعشرين، ثلاثة وعشرين، سبعة وعشرين.

وأطلب، في هذه اللحظة، أن يطول عمري، حتـى أتمكن من فعل ما لم أفعله حتى الآن، أهمس بصوت باهـت الرائحة، ليتني لا أموت هذا المساء.

ويموت كل شيء في نفسي، كل مساء.

ويتغير لون النهار، وتغوص كل الأشياء حولي في مساحات الصمت، وكتل العتمة الرمادية، وأثور مـن خلـف نافذتي وأقرر بحماس، أنني في الغد، الصباح البـاكر علـى الأكثر، سأفعل كل شيء، أحل كل مشاكل العالم، وأبدأ مـن جديد.

"ا ميس"

لا أسافر إلى المنصورة، إلا مرة واحدة في الشـهر، يوم الخميس الأول من كل شهر، والسبب الوحيد هو أننـي، أدفع لهم في المنزل مبلغ ستة جنيهات مـن مرتبـي البـالغ عشرة جنيهات وسبعين قرشا وثلاثة عشر مليما. المهـم، أن الناس هنا، يتصورون أنني أسافر في هذا اليوم بالذات، كـي أقضي سهرة حمراء، أقضيها مستمعا إلى الراديـو، حيـث تكون حفلة أم كلثوم الشهرية، وفي هذه السهرة، كل مـا لـذ وطاب، خمور ونساء وشواء، وعندما واجهني عبـد الغنـي بهذه الحقيقة، ابتسمت، وأحسست زهوا يملأ فراغي الداخلي، ولم أشأ أن أثبتها أو أنفيها.

في زيارتي الأخيرة للمنصورة، طلبت منـي أمـي، وأقول أمي، وأقول أمي، لأنني لم يسبق لي الحديث مباشـرة مع أبي، سوى مرة واحدة، أو مرتين، وكل تفاهم بيني وبينه، يتم عادة، عن طريق أمي؛ لهذا فلقد يتحدد شـعوري نحـوه بالحب أو بالكراهية، وقد يرتفع حبي له لدرجة الرغبة فـي احتضانه، وقد تهبط كراهيتي له، لدرجة أن أتمنـى موتـه،

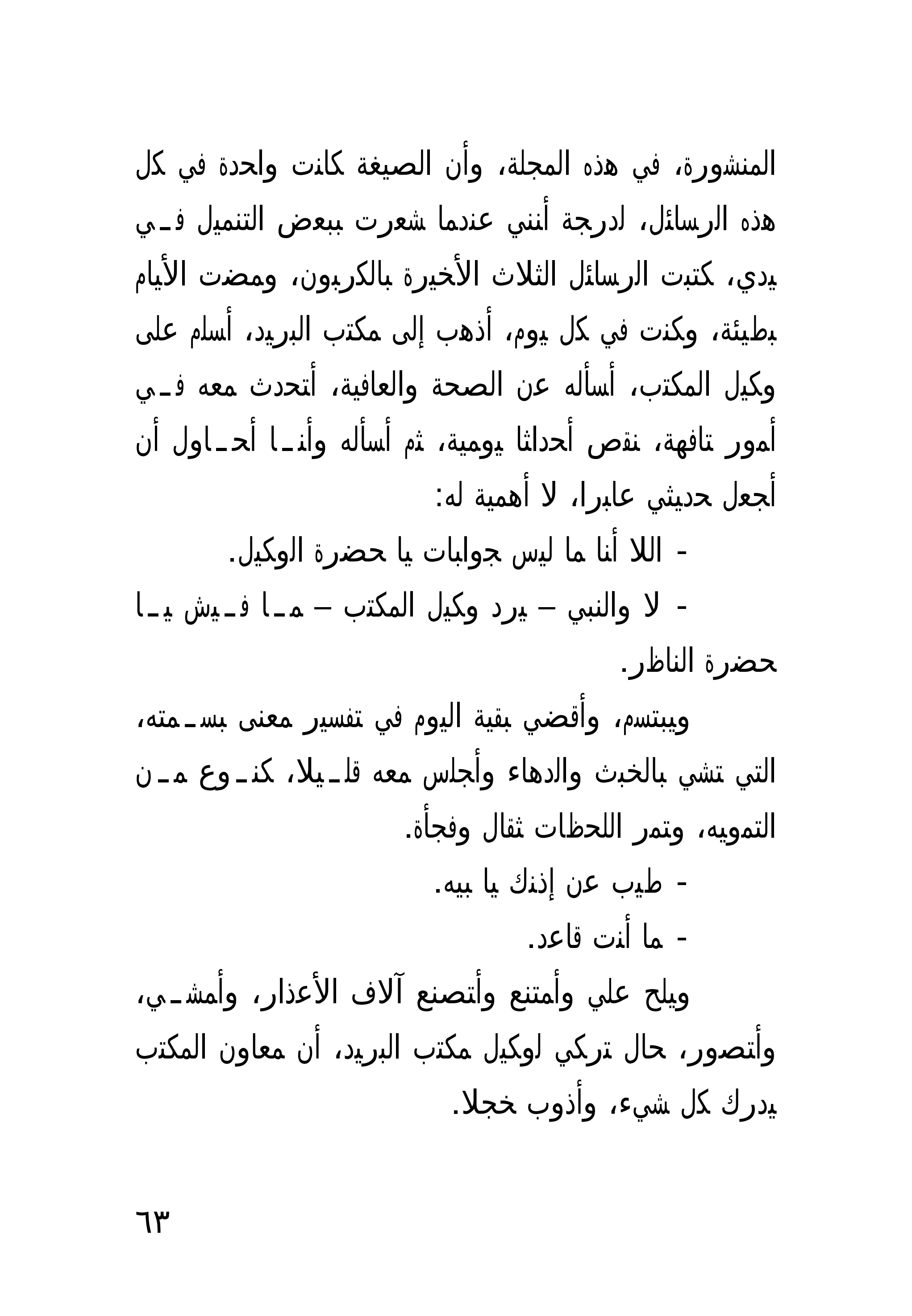
ولكني في كل هذه الحالات، لم أشعر به. ولم يكـن يربطنـا سوى تحية الصباح، والسلام عليه، وتقبيل يده[١١] ولم أشـعر في يوم ما، أنه يعاملني كابنٍ وصل إلى مرحلة الرجولة، أو أنني كنت أنظر إليه كأب.

ما علينا، طلبت مني أمي، أن أقلل من رسائلي إليهم، وأن لا أذكر فيها إلا المهم جدا من أمور الحياة؛ لأن والـدي قد تصور أنه قد حدث لي مس، عـدت هـذه المـرة إلـى الرزيمات، وأنا أتساءل، لمن سأكتب إذن، لقد قضـوا علـى وسيلتي الوحيدة في التسلية، ولكن من المؤكد أن لكل مشكلة حلا، وأن الحاجة أم الاختراع.

حدث أثناء عودتي، أن اشتريت إحـدى المجـلات، وكانت فيها صفحة عن هواة المراسلة، وبالطبع نقلت أسماء الفتيات كلهن، وعناوينهن، وبمجرد وصولي إلـى القصـر، جلست أدون رسائلي، كتبت عشر رسائل إلى فتيـات مـن الإسكندرية وبيروت والنجف بالعراق وشبين الكوم وطنطـا. ولا أكتمك أنني قضيت الليلة كلها، أحـدق فـي صـورهن

---

[١١] هكذا طلبت مني أمي، فلقد أخبرها والدي، أنه لاحظ أنني لا أكن له احتراما، ولا أقبل يده، كلما سلمت عليه.



المنشورة، في هذه المجلة، وأن الصيغة كانت واحدة في كل هذه الرسائل، لدرجة أنني عندما شعرت ببعض التنميل فـي يدي، كتبت الرسائل الثلاث الأخيرة بالكربون، ومضت الأيام بطيئة، وكنت في كل يوم، أذهب إلى مكتب البريد، أسلم على وكيل المكتب، أسأله عن الصحة والعافية، أتحدث معه فـي أمور تافهة، نقص أحداثا يومية، ثم أسأله وأنـا أحـاول أن أجعل حديثي عابرا، لا أهمية له:

- اللا أنا ما ليس جوابات يا حضرة الوكيل.

- لا والنبي – يرد وكيل المكتب – مـا فـيش يـا حضرة الناظر.

ويبتسم، وأقضي بقية اليوم في تفسير معنى بسـمته، التي تشي بالخبث والدهاء وأجلس معه قلـيلا، كنـوع مـن التمويه، وتمر اللحظات ثقال وفجأة.

- طيب عن إذنك يا بيه.

- ما أنت قاعد.

ويلح علي وأمتنع وأتصنع آلاف الأعذار، وأمشـي، وأتصور، حال تركي لوكيل مكتب البريد، أن معاون المكتب يدرك كل شيء، وأذوب خجلا.

لم تفكر واحدة منهن في الرد علي.

قلت لنفسي، سامحهن ا ، وكان عزائي، وأرجـوك أن لا تضحك من سذاجتي، أنا أتصور، أن رسـائلي، التـي كتبتها بخط يدي، في قصري المهجور هنا. في يـد فتيـات حسان، في أماكن لا أحلم حتى بالذهاب إليها، وأنهن يقـرأن ما فيها، ويحاولن فهمه، وعما قريـب ستصـلني الـردود، وسأختار أنا منهن من أدوام على مراسلتها.

ولكن الأيام أكدت لي أنه لم تفكر واحدة مـنهن فـي مجرد الرد علي، وتجرعت في لحظات حزني الليلية، ذرات الانتظار المرة، وابتلعـت بمفـردي، كبريـائي المزعـوم، وشاهدت بنفسي لحظة انتصاف الليل.

وسكت.

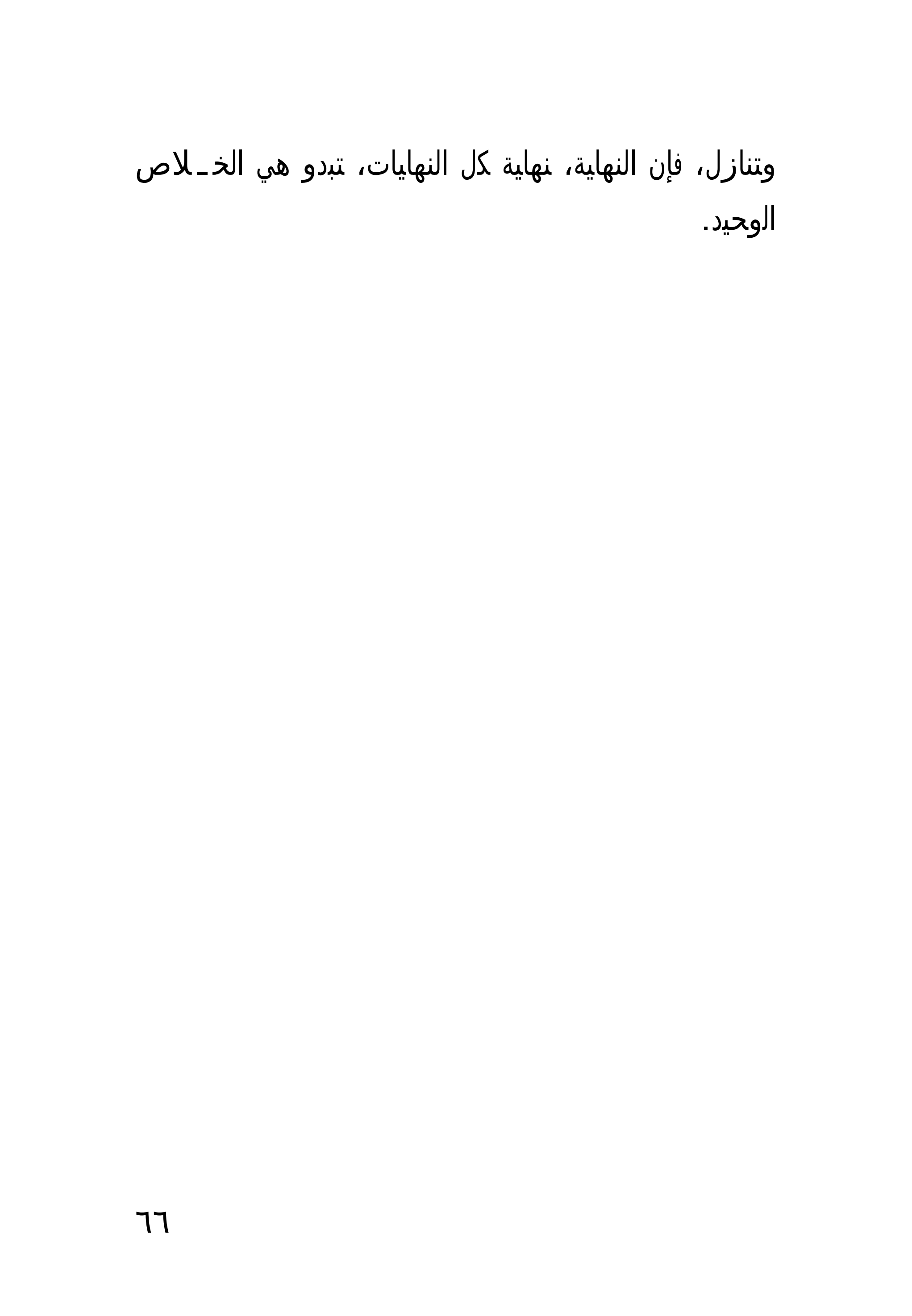
"الأربعاء"

فتحت كتاب مذكراتي، هذا المساء، كتبت فيه، المساء هو أسوأ ما في الأمر، كتبت بعد ذلك فـي ذيـل الصـفحة المتآكلة الأطراف، عندما يخلو العالم مـن الأمـل، فإنـه لا يصلح حتى للتنفس، وكتبت ما أعذب الصمت، وما أجملـه، بعودة الصمت إلى، تعود الحياة إلى شكلها البدائي، تتحال إلى عناصرها الأولى، وهذا ما يجعلني أؤكد أن الصمت يناسـب الصلاة، كلا، الصمت هو الصلاة نفسها.

الذي لم أكتبه هذه الليلة، هو أن الصمت الذي أتحدث عنه، صمت زاخر بالمرارة والانكسار، صمت تنـوح فيـه الرياح، صمت ناتج عن الإحساس الحاد بالهدوء، كما يحـس الإنسان بالصمت الكبير الذي يرين على البحـار المتراميـة الأطراف، والبيوت المهجورة، والمدافن التي لم يـدفن فيهـا أحد بعد.

وكتبت.

عندما يتدهور الصمت والكتمان والانفراد إلى بـلادة في الحس، وعندما تتحول الطاعـة إلـى جـبن ورضـوخ



وتنازل، فإن النهاية، نهاية كل النهايات، تبدو هي الخـلاص الوحيد.

"ا معة"

بدأت أفقد لذة مشاهدة أهل العزبة، فكل مـا يحـدث اليوم، هو نفس ما حدث بالأمس، وما سيحدث غـدا، وبعـد غد، وإلى الأبد، والناس هنا، هم نفس الناس، ينـامون مـع لحظة سقوط الليل، يصحون، يقضون حاجاتهم في الحقـول، يغسلون وجوهم أو يستحمون في التـرع والمصـارف، ثـم يعودون إلى منازلهم، حيث يتناولون طعام الإفطار، يشربون الشاي المر، يذهبون إلى حقولهم، وفي المساء، يعودون إلى منازلهم.

وحياة الناس، في هذه العزبة الصغيرة، كتاب مفتوح، الفضائح والزيجات، قصص العشق والغرام، كل ما يحـدث، تتناقله الألسن، وعبد الغني، يحكي لي كل شيء، فـي هـدأة الليل، ويقدم لي تفسيرا واضحا لكل الأحداث.

أصبحت أتصور أنه توجد علاقة بيني وبين كل فرد في العزبة، علاقة شخصية لدرجة أننا، عنـد سـيرنا فـي حواري العزبة، نشاهد أحيانا، امرأة، أو شابا، فيقترب منـي

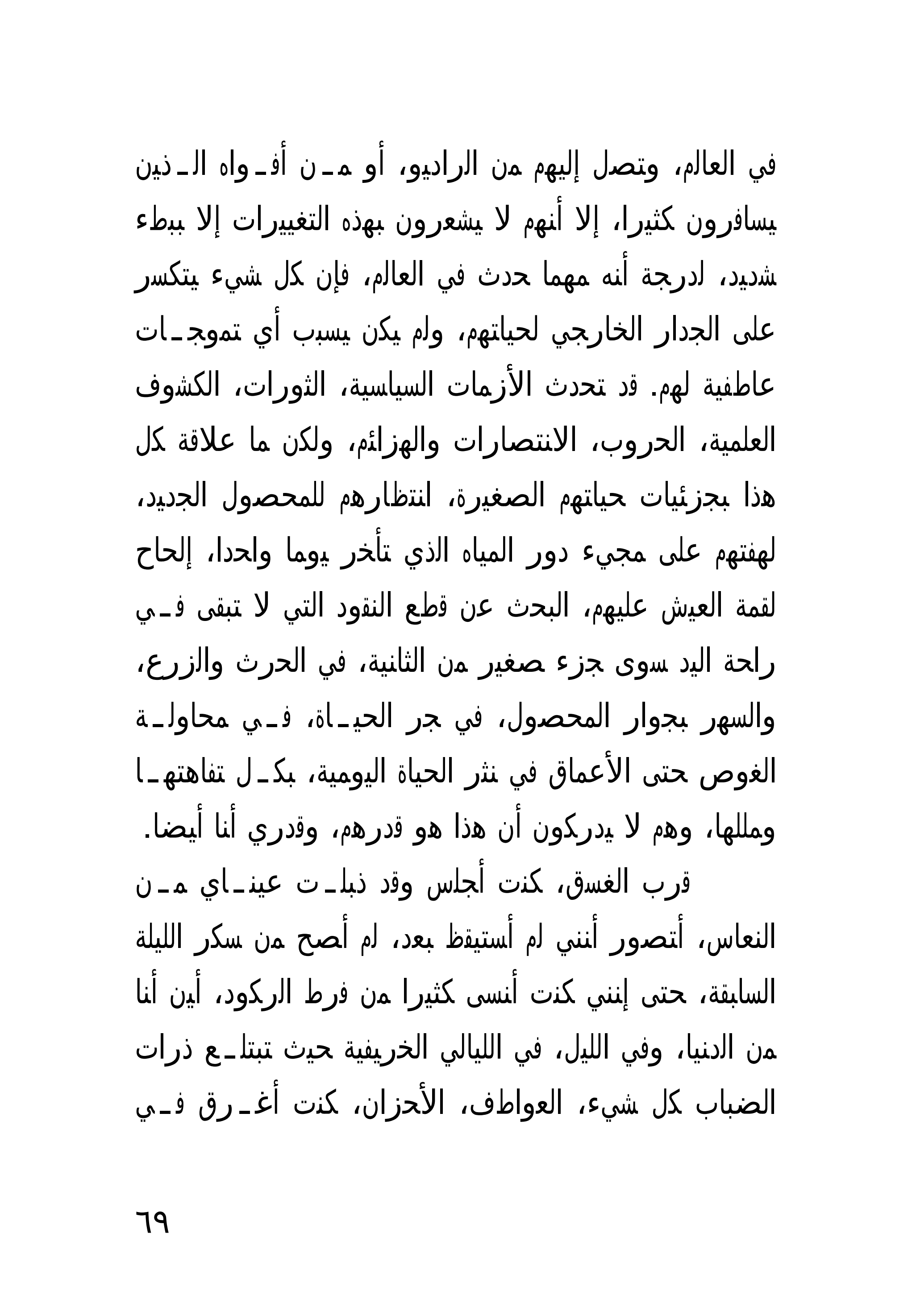
عبد الغني، ويقرب فمه من أذني، ويهمس لي بكلمات حكاها لي في القصر عن الشخص.

- أهو دا اللي مسكوه مع بنت المقـاول فـي غـيط الذرة.

وعلى الفور أتذكر الحكاية، وحكم عبد الغني عليها، وتفسيره لها وفي العزبة، بل وفي كـل البيئـات المجـاورة المحدودة، ما أن يحدث حادث صغير، لا قيمـة لـه، حتـى نلهث، ونستيقظ من نومنا الدائم، وفـي تصـورنا أن شـيئا مثيرا، مدهشا، غير عادي، قد حدث. رغم أننا نـدرك أننـا نكذب على أنفسنا، ولكنهـا محاولـة منـا لخـدش أسـوار اللامبالاة، محاولة يائسة للخروج من سجن الليـل والنهـار، والنهار والليل.

لا أكذب عليك، ما أن يحـدث أي شـيء، خناقـة، حريق، وفاة، قتل، طلاق، حتى تبتهج نفسي، أفرح، ياه، مـا زال هناك أحياء، آدميون، يشعرون، ولكن كل شيء ينتهي، وتعود الحالة إلى سابق عهدها.

والناس هنا يعيشون ويموتون، وتمضي بهم الحيـاة بطيئة مع الدورات العادية للفصول وقد تحدث تغييرات كثيرة


في العالم، وتصل إليهم من الراديو، أو مـن أفـواه الـذين يسافرون كثيرا، إلا أنهم لا يشعرون بهذه التغييرات إلا ببطء شديد، لدرجة أنه مهما حدث في العالم، فإن كل شيء يتكسر على الجدار الخارجي لحياتهم، ولم يكن يسبب أي تموجـات عاطفية لهم. قد تحدث الأزمات السياسية، الثورات، الكشوف العلمية، الحروب، الانتصارات والهزائم، ولكن ما علاقة كل هذا بجزئيات حياتهم الصغيرة، انتظارهم للمحصول الجديد، لهفتهم على مجيء دور المياه الذي تأخر يوما واحدا، إلحاح لقمة العيش عليهم، البحث عن قطع النقود التي لا تبقى فـي راحة اليد سوى جزء صغير من الثانية، في الحرث والزرع، والسهر بجوار المحصول، في جر الحيـاة، فـي محاولـة الغوص حتى الأعماق في نثر الحياة اليومية، بكـل تفاهتهـا ومللها، وهم لا يدركون أن هذا هو قدرهم، وقدري أنا أيضا.

قرب الغسق، كنت أجلس وقد ذبلـت عينـاي مـن النعاس، أتصور أنني لم أستيقظ بعد، لم أصح من سكر الليلة السابقة، حتى إنني كنت أنسى كثيرا من فرط الركود، أين أنا من الدنيا، وفي الليل، في الليالي الخريفية حيث تبتلـع ذرات الضباب كل شيء، العواطف، الأحزان، كنت أغـرق فـي

الضجر، وعندما كنت أحاول أن أتحدث مع عبد الغني، كنت أحس أن الكلمات، فقدت معالمهـا، تمامـا، كـالنقود غيـر الواضحة المعالم، الممسوحة الكلمات، من كثرة الاستعمال.

- بتقول إيه يا خلف ا   أفندي، أنت مالك اليـومين دول؟

- ولا حاجة.

وكنت أكتفي بالجلوس إلى جوار النافـذة، استنشـق بملء رئتي هواء الليل الطري، الذي يتصاعد من النباتـات الخضراء، وكانت نظراتي ترتمي على النباتـات والـزروع وأعالي النخيل وذؤابات الأشجار، وكان بخار الأسـى، فـي هذه الليالي يتصاعد، جاعلا نفسي ثملة بالأحزان.

وفي آخر هذه الليالي الخريفية الباردة، كنت أشـعر من خلف الزجاج السميك، أن هناك نوعا من الدفء والغنى، يملأ كل رحاب الليل، إلا حجرتي، تلك المسـاحة الفراغيـة التي تتسع كل ليلة عن الليلة السابقة، بين الجدران الأربعـة، والسقف العالي، والأرض الفسيحة.

"الأحد"

انتهيت إلى نتيجة هامة.

أن أهل المدن، يتحدثون في الأماكن العامة، حيـث المقاهي المزدحمة، والمقاعد المريحة في الصالونات الهادئة، في الحدائق والمتنزهات، وهم يمشون في الشوارع الواسعة، يتحدثون عن المال ووقت الفراغ، السأم. وقد يتحدثون فـوق ذلك، لمجرد الرغبة في الحـديث، عـن الجـوع الجنسـي، والعطش العاطفي.

ولكنني أؤكد، وأرجو أن تصدقني، إنهم جميعـا لـم يجربوا أي هذه الحالات قط، مما يدفعني إلـى أن أتفلسـف وأقول: إننا إما أن نحيا حياتنا، نملأها بوجودنا، أو نتحـدث عنها، وأنا من النوع الثاني، الذي قدر له، مكرها، أن يتحدث عن حياته.

ويبدو لي الآن، أن العمر قد ينقضي، دون أن أفعـل أي شيء، ولك أن تقارين بين جلستي هذه، خلـف زجـاج نافذتي، في الدور الأرضي من قصر الأميرة سميحة، ابنـة السلطان حسين كامل، وقطرات المطر تنزلق في كسل على

زجاج النافذة، أحدق في الظلام، وأشعر أنـه يتسـلل إلـى أعماقي شيء ما، لزج الرائحة، مالح الطعم.

أجلس هكذا، كي أحسب، كم مر من الأيام، على آخر شجار قام بين عمي فتح ا ناظر الزراعة السابق وزوجتـه الشابة، وأحسب كم باقي من الزمن على سفري القادم إلـى المنصورة، أحسبه مرة بالأيام، وأخرى بالسـاعات وثالثـة بالدقائق، مستخدما في المرة الثالثة ورقـة بيضـاء، وقلـم رصاص، محاولا امتصاص أكبر قدر من الوقت، وكم بيتـا في العزبة سأشاهد أمامها في الصباح الباكر، مياه اسـتحمام مثقلة برغاوي الصابون. وأحسب كم شهرا بقي؛ حتى أدون لنفسي علاوة شهرية وقدرها، وبها يصبح مرتبـي كـذا، أو أحسب السنوات الباقية كي أرقى إلى الدرجة الثانية، وكمـن من موظفي الناحية أقدم مني، وعلى الفور، أتصور أن تحرق منازلهم، أو أن يصيب ا بلادهم بزلزال رهيب، ويموتـوا جميعا، كي أرقى في العام القادم.

في نفس هذه اللحظة، في مكان آخر من العالم، ولـم أذهب بعيدا في المنصورة، بلدتي، شارع العباسي، المقـاهي مقفلة الأبواب والنوافذ، بخار الشاي ودخان الجوزة يـوحي

برائحة الدفء، (شيش بيش، كش ملك. واحد قهـوة سـادة. الماك بتاعك اتحرق ارميه). أرضية الشارع المغسولة بحبات المطر، الفتيات في الشوارع، تهب نسمات الليـل الطريقـة، ترتفع فساتين الفتيات الجديدة، تبدو مسـاحات مـن اللحـم الأبيض. الرجال العائدون إلى منازلهم، في أيـاديهم أرغفـة يخرج منها بخار دافئ.

تلميذان صغيران، يسأل أحدهما الآخر عـن موعـد قدوم حملة بونابرت إلى مصر، وأسباب حملته، أمـي، فـي شقتنا الصغيرة، تطبق ملابس أبي المغسولة، والتي جفـت، تضعها تحت المخدة، تحدث والدي برغبتي التي طلبتها منها، أن يعفوني مما أدفعه لهم لمدة شهر واحد فقط، كي أشـتري راديو ترانزستور، يسليني، ويعينني على قضاء أيامي فـي العزبة، والدي يصيح فيها، يقول لها إنه لم يكن له مصروف خاص به حتى سن الخامسة والعشرين، تسكت أمي، القطـار القادم من بلدتنا، ذاهبا إلى دمياط، يذوب في الليل، يحتويـه صمته الجبار. أمي ترسل لي أخي الأصغر، يشـتري لهـم المشبك الدمياطي، بنت الجيران تعود إلى منزلهـا، ترتـدي

بالطو من المشمع، يقيها من المطر، تقول أمي إن خطيبها أرسله لها من الكويت حيث يعمل هناك.

وأنا جالس هنا، أفكر من خلف نافذتي، هل يوجد في هذا العالم، الواسع، الكبير، الذي لا تحده حدود، أي فرد ما، إنسان يفكر في، يحاول أن يرسم صورتي الباهتة في خياله.

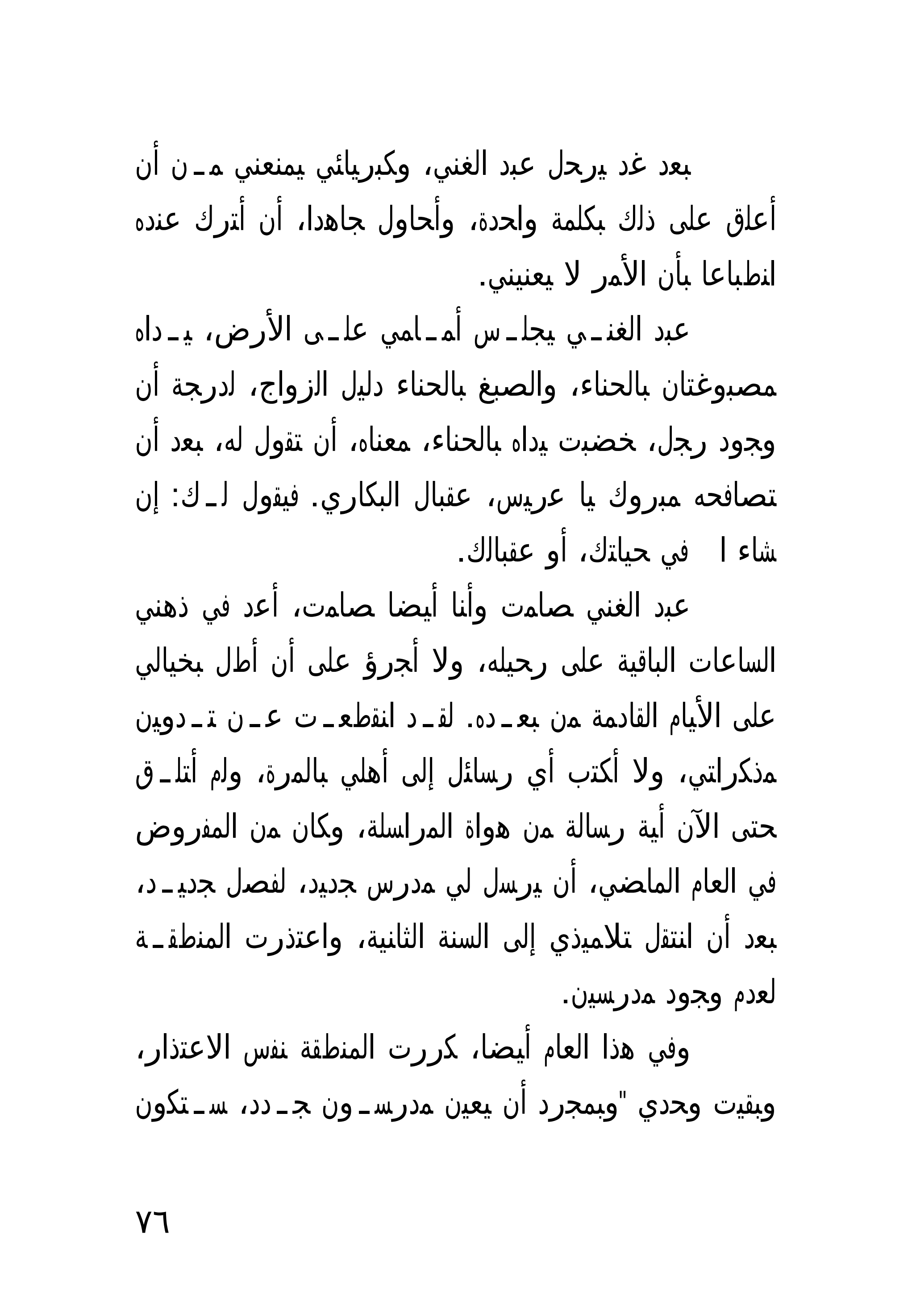
وبعد تفكير طويل، أدرك أنني أعني بالنسبة لغيري من الناس، مجرد احتمال عابر، طيف، وأنني لم أحفر في خيال أحد الناس هنا، شيئا فريدا.

"يوم ما"

لم تكن لي امرأة قط.

بل ولا حتى فتاة صغيرة، ولا أعرف أي شيء عـن جنس النساء، فقط أسمع حكايا، مشكوكًا فيها بالطبع، من عبد الغني، وكلها قائمة على أساس نظرية يؤمن بها عبد الغنـي، مثل إيمانه بكل ما في الحياة. تقوم هذه النظرية، على أساس تفوقه الجنسي على كل من هو أغنى منه؛ ولذا كانـت كـل حكاياه عن زوجة ناظر الزراعة، وابنة شيخ البلـد، وأخـت العمدة، وزوجة مفتش القسم، وأرملة شيخ الغفـر السـابق، فحمدت ا ، في كل مرة، أنني لم أتزوج بعد.

حديث عبد الغني، في هذه الليلة، كانـت لـه دلالـة خاصة، فلقد تكون هذه الليلة هي الليلة قبل الأخيـرة.. ففـي الغد، أو بعد الغد على الأكثـر، سـيهجرني عبـد الغنـي، سيتزوج، مما يدفعني إلى عدم القدرة علـى تصـور شـكل حياتي بدونه. ورحيل عبد الغني يعني جملة مشاكل؛ الأكـل، الحياة، في القصر، الليل الشتوي الطويل، الوحدة.

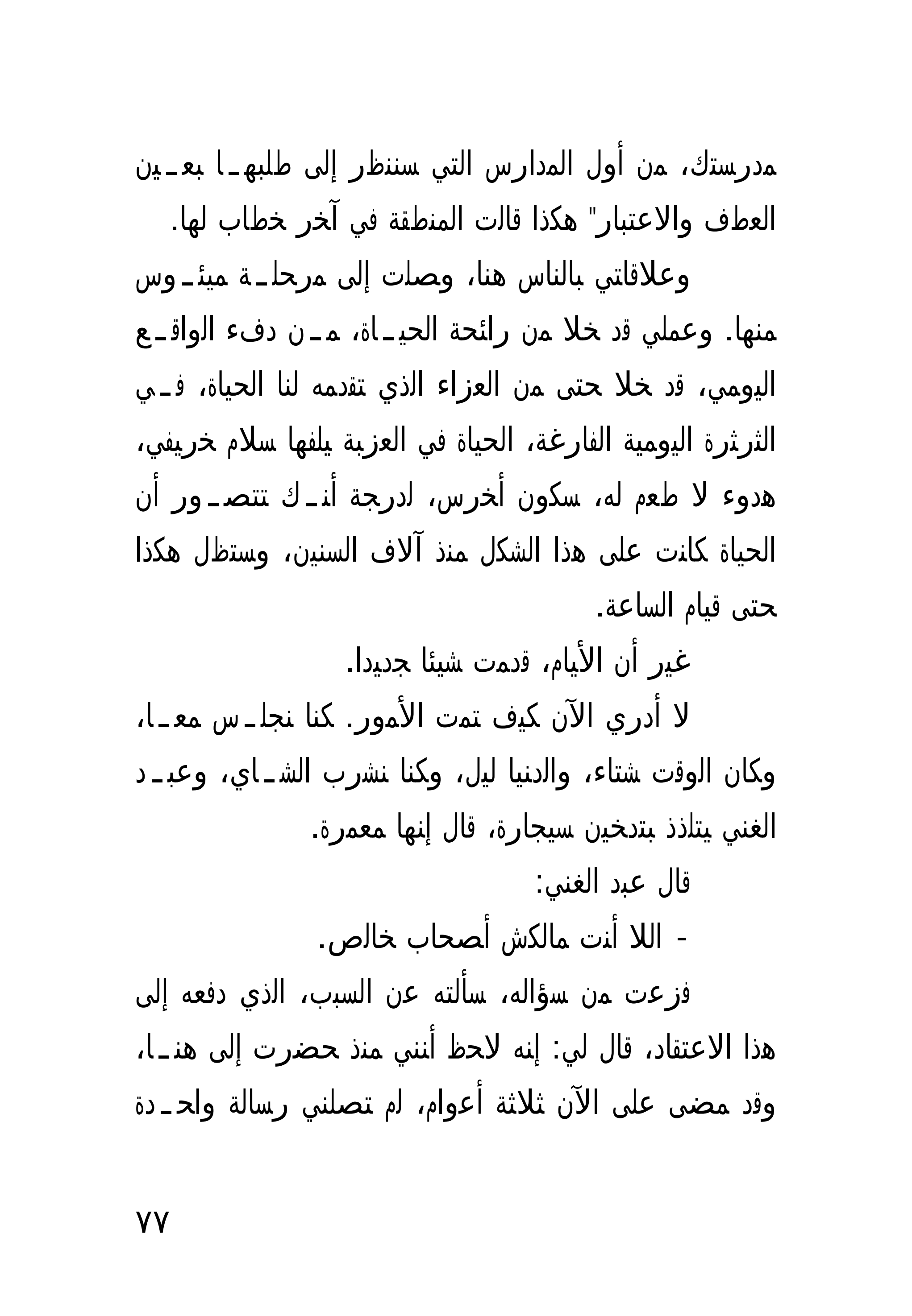


بعد غد يرحل عبد الغني، وكبريائي يمنعني مـن أن أعلق على ذلك بكلمة واحدة، وأحاول جاهدا، أن أترك عنده انطباعا بأن الأمر لا يعنيني.

عبد الغنـي يجلـس أمـامي علـى الأرض، يـداه مصبوغتان بالحناء، والصبغ بالحناء دليل الزواج، لدرجة أن وجود رجل، خضبت يداه بالحناء، معناه، أن تقول له، بعد أن تصافحه مبروك يا عريس، عقبال البكاري. فيقول لـك: إن شاء ا في حياتك، أو عقبالك.

عبد الغني صامت وأنا أيضا صامت، أعد في ذهني الساعات الباقية على رحيله، ولا أجرؤ على أن أطل بخيالي على الأيام القادمة من بعـده. لقـد انقطعـت عـن تـدوين مذكراتي، ولا أكتب أي رسائل إلى أهلي بالمرة، ولم أتلـق حتى الآن أية رسالة من هواة المراسلة، وكان من المفروض في العام الماضي، أن يرسل لي مدرس جديد، لفصل جديـد، بعد أن انتقل تلاميذي إلى السنة الثانية، واعتذرت المنطقـة لعدم وجود مدرسين.

وفي هذا العام أيضا، كررت المنطقة نفس الاعتذار، وبقيت وحدي "وبمجرد أن يعين مدرسـون جـدد، سـتكون



مدرستك، من أول المدارس التي سننظر إلى طلبهـا بعـين العطف والاعتبار" هكذا قالت المنطقة في آخر خطاب لها.

وعلاقاتي بالناس هنا، وصلت إلى مرحلـة ميئـوس منها. وعملي قد خلا من رائحة الحيـاة، مـن دفء الواقـع اليومي، قد خلا حتى من العزاء الذي تقدمه لنا الحياة، فـي الثرثرة اليومية الفارغة، الحياة في العزبة يلفها سلام خريفي، هدوء لا طعم له، سكون أخرس، لدرجة أنـك تتصـور أن الحياة كانت على هذا الشكل منذ آلاف السنين، وستظل هكذا حتى قيام الساعة.

غير أن الأيام، قدمت شيئا جديدا.

لا أدري الآن كيف تمت الأمور. كنا نجلـس معـا، وكان الوقت شتاء، والدنيا ليل، وكنا نشرب الشـاي، وعبـد الغني يتلذذ بتدخين سيجارة، قال إنها معمرة.

قال عبد الغني:

- اللا أنت مالكش أصحاب خالص.

فزعت من سؤاله، سألته عن السبب، الذي دفعه إلى هذا الاعتقاد، قال لي: إنه لاحظ أنني منذ حضرت إلى هنـا، وقد مضى على الآن ثلاثة أعوام، لم تصلني رسالة واحـدة

باسمي، والمراسلة نصف المشاهدة كما يقولون، وما دمـت متعلما، فلابد أن لي أصدقاء متعلمين، فما المانع إذا مـن أن نتراسل، أم أن هناك سببا آخر.

لم تصلني رسالة منذ ثلاثة أعوام كاملة.

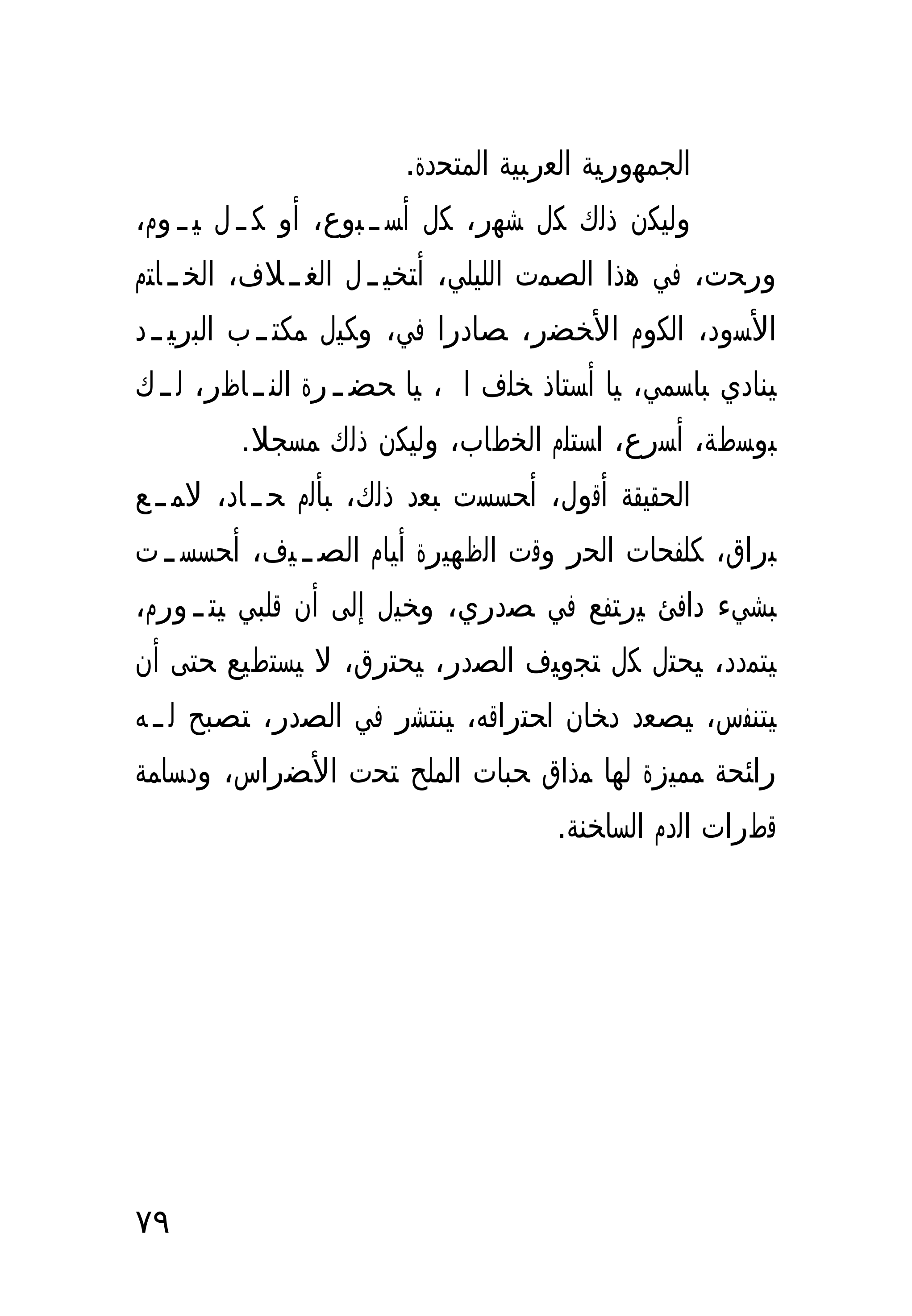
تصورت أن ذلك قد ينتقص من قدري أمامه، وأمـام وكيل مكتب البريد، وباقي الموظفين هنا، والـذين ينفـردون بأنفسهم عادة، أفكار خاصة، غريبة وساذجة، بيني وبينك، لم يتضح في ذهني، سوى تصور مشـوش، مجـرد محاولـة، لاحتواء إحساس غامض، لما يجب أن أقوم به، ورحت أفكر. ليذهب عبد الغني، وليقف الليل عملاقا ثقيل الخطى، ولتمتـد السماء من فوق القصر خالية كينابيع الحزن، ولتقل النقـود، ولينتفض العالم كله من حولي، ولتضحك مني كـل فتيـات المنصورة، وليمتد الليل ليشمل كل وقت المنصورة.

سأقوم بتحرير خطابات باسمي.

يصل ويسلم ليد الأستاذ الكبير خلـف ا   الرتـاوي خلاف ا .

ناظر مدرسة الرزيمات الابتدائية المشتركة.

الرزيمات، بريد الكوم الأخضر، محافظة البحيرة.



الجمهورية العربية المتحدة.

وليكن ذلك كل شهر، كل أسـبوع، أو كـل يـوم، ورحت، في هذا الصمت الليلي، أتخيـل الغـلاف، الخـاتم الأسود، الكوم الأخضر، صادرا في، وكيل مكتـب البريـد ينادي باسمي، يا أستاذ خلف ا ، يا حضـرة النـاظر، لـك بوسطة، أسرع، استلم الخطاب، وليكن ذلك مسجلا.

الحقيقة أقول، أحسست بعد ذلك، بألم حـاد، لامـع براق، كلفحات الحر وقت الظهيرة أيام الصـيف، أحسسـت بشيء دافئ يرتفع في صدري، وخيل إلى أن قلبي يتـورم، يتمدد، يحتل كل تجويف الصدر، يحترق، لا يستطيع حتى أن يتنفس، يصعد دخان احتراقه، ينتشر في الصدر، تصبح لـه رائحة مميزة لها مذاق حبات الملح تحت الأضراس، ودسامة قطرات الدم الساخنة.

" يوم لا وجود له على خريطة العمر"

مضى علي الآن ثلاثة أعوام هنا.

قررت في الصباح أن أذهب إلى دمنهـور؛ لمقابلـة المدير العام. تركت في المدرسة طلب إجازة عارضة، وقلت لهم في المدرسة إنني ذاهب لمقابلة المدير العام بنـاء علـى طلبه. وفي دمنهور، سأطلب نقلي إلى المنصورة، ويجب أن أكون حازما في هذا الطلب، ركبت الأتوبيس الـذاهب إلـى دمنهور، وهذا لا يحدث كثيرا، ولسفري نظام صارم، يعرفه الناس هنا؛ ولهذا سئلت صباح اليوم من كل الذين قـابلوني: إيه، خير إن شاء ا ، وأغمغم من بين أضراسي بكلمـات لا تعني شيئا محددا.

في دمنهور، وكان الوقت صباحا. أحسسـت أننـي غريب وسط هذا الزحام، وفي هذه المدينة الصغيرة؟ خيـل إلى أنني أفتقد لحظات الصمت المشحونة بـالمرارة، أفتقـد

الاتساع اللانهائي للحقول المغطاة بقشرة خضراء تتموج مع هبات النسيم. وكنت وأنا في الطريق إلى المديرية، قد حذفت ما تصورت أنه غير لائق أو خشن من الألفاظ، قلتها لنفسي بصوت لم يسمعه أحد سواي، رققت من صـوتي، تركـت ملامح وجهي المجهدة تسيل ليونة، تحسست جبيني، أدركت أن هذا الشهر كان شهرا كريما، جلست على مقهى صـغير، شربت شايا، انتشرت في مذاقه رائحة المرارة.

وفي المديرية قابلت المدير، سلمت عليه.

- أنا يا أفندم، خاف ا البرتاوي.

تاهت الكلمات، جف الحلق، وكان في مكتبه أنـاس كثيرون، وعندما انتبه أخيرا. قلت ما أريده بكلمات لم أدرك معناه. انسالت حبات عرق باردة، غطت جبهتي، تحسسـت جيوبي، لم أجد منديلا أجفف به نقط العرق.

- (كويس، عايز تتنقل).

انداحت فترة صمت مستطيلة بيننا، حركـت يـدي وملامح وجهي في فرحة مفاجئة.

- أنت مدرس في مدرسة الرزيمات المشتركة.

- أيوه يا أفندم.

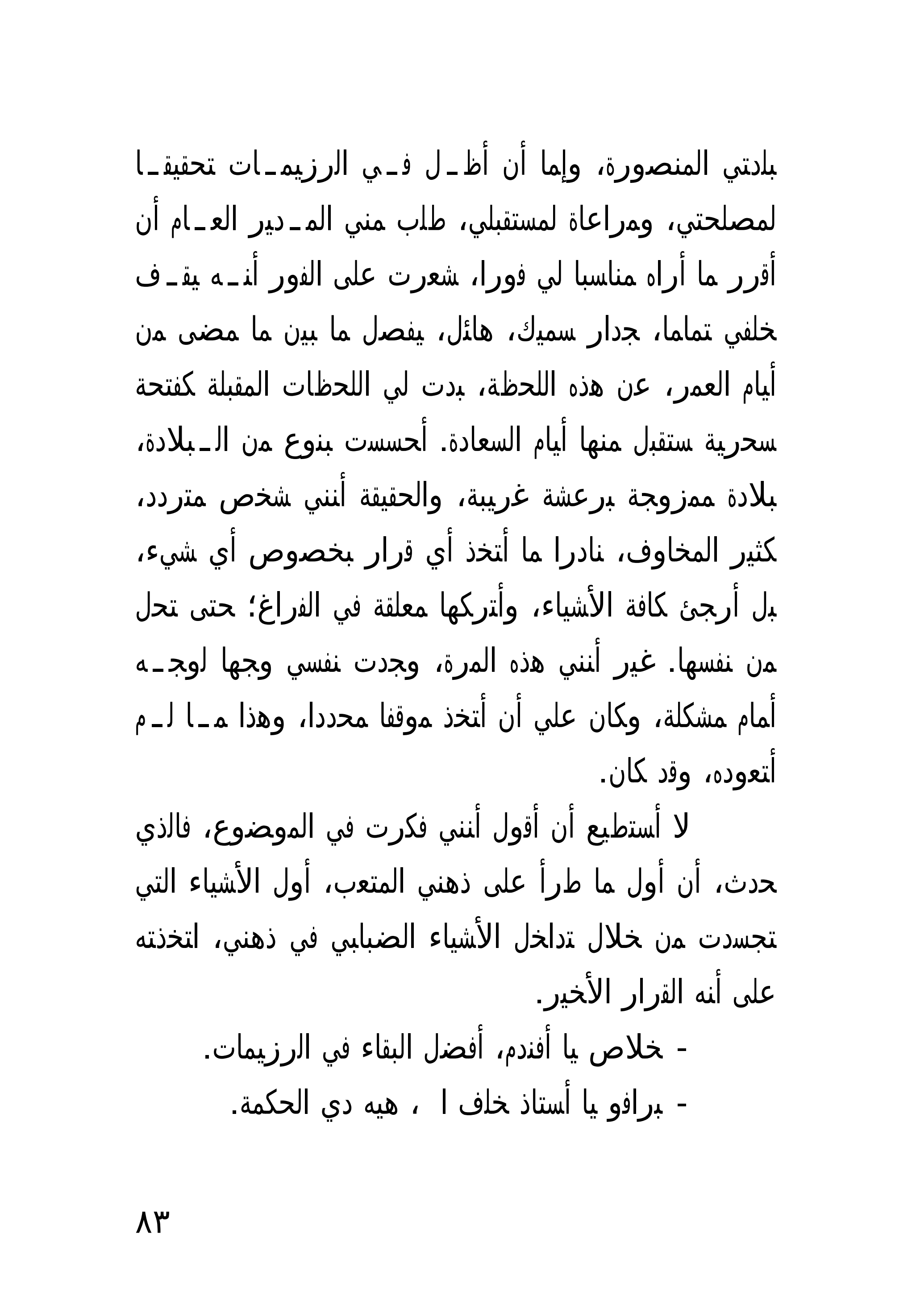
قال لي المدير، في المدرسة ذات الفصل الواحد، لـم أجبه، طرت فرحا، زغردت الفرحة في أعماقي. أخيرا لـم يذهب العمر هباء، لم تضع لحظات المعاناة والقلق والعـذاب سدى، ها هنا، وفي هذا المكتب الأنيق، شخص ما، يعـرف اسمي، ومدرستي البعيدة.

- طيب اتفضل أقعد يا ابني.

قال لي المدير العام: إن وجـودي فـي الرزيمـات فرصة ذهبية من أجل مستقبلي؛ ففي العام القادم، سيعين معي مدرس آخر، وسيصدر قرار وزاري بتعييني ناظرا بصـفة رسمية، وبناء على ذلك سيصرف لي بدل تمثيل، وسـأمنح درجة بشكل استثنائي، وهي صلاحيات لابد منها لـي، كـي أؤهل لوظيفة الناظر، وهي أولى خطواتي نحو مستقبل سعيد.

- ودا استثناء لم يحدث من قبل يا سيد خاف ا .

وجدت نفسي أسبح في عالم من الأحـلام الورديـة. للحظة، جزء صغير منها، لم أدرك حقيقة ما يقولـه المـدير العام. قال لي المدير العام إنه يمنحني فرصة قدرية لا تحدث في العمر الواحد مرتين، إنه علي في هذه اللحظة، أن أختار، إما أن أطلب النقل، وسيجيبني إلى طلبي فورا، وأنقـل إلـى



بلدتي المنصورة، وإما أن أظـل فـي الرزيمـات تحقيقـا لمصلحتي، ومراعاة لمستقبلي، طلب مني المـدير العـام أن أقرر ما أراه مناسبا لي فورا، شعرت على الفور أنـه يقـف خلفي تماما، جدار سميك، هائل، يفصل ما بين ما مضى من أيام العمر، عن هذه اللحظة، بدت لي اللحظات المقبلة كفتحة سحرية ستقبل منها أيام السعادة. أحسست بنوع من الـبلادة، بلادة ممزوجة برعشة غريبة، والحقيقة أنني شخص متردد، كثير المخاوف، نادرا ما أتخذ أي قرار بخصوص أي شيء، بل أرجئ كافة الأشياء، وأتركها معلقة في الفراغ؛ حتى تحل من نفسها. غير أنني هذه المرة، وجدت نفسي وجها لوجـه أمام مشكلة، وكان علي أن أتخذ موقفا محددا، وهذا مـا لـم أتعوده، وقد كان.

لا أستطيع أن أقول أنني فكرت في الموضوع، فالذي حدث، أن أول ما طرأ على ذهني المتعب، أول الأشياء التي تجسدت من خلال تداخل الأشياء الضبابي في ذهني، اتخذته على أنه القرار الأخير.

- خلاص يا أفندم، أفضل البقاء في الرزيمات.

- برافو يا أستاذ خلف ا ، هيه دي الحكمة.

وفي طريق عودتي، كانت رائحة التراب في أنفـي لزجة، غفوت، وصحوت من غفوتي، وما كان يعذبني أن ما فعلته في هذا اليوم، لم يكن قادرا على إسعادي، بـل كنـت أدرك طوال الطريق، أنني قد خطوت في طريـق لا عـودة منه، وأن الباب الذي أوصدته خلفي، باب عملاق، يبدأ أولـه في الأرض، وينتهي آخره عن السماء، وأنه لم يعد أمـامي من الآن إلا أن أواصل الطريق.

وعندما استدار الأتوبيس في شارع المعهـد الـديني بدمنهور، احتويت المدينة في أعماقي بنظرة حانية، واستقرت المرئيات في صميم نفسي، واستراحت في خيالي، وفزعـت لدرجة الهلع، عندما تصورت، مجرد تصور، أنني لـن أرى هذه المدينة بعد ذلك أبدا.

اليوم الثالث

" وفيه يزف السيد/ خلاف ا   البرتـاوي خلـف ا ،
دونما أي شكل من أشكال الاحترام والتبجيل، إلى نفسه".

أربعة أعوام كاملة مرت علي هنا.

ياه، العمر يتسرب ببطء شديد، غير أن ما مضى من العمر كثير كثير، أربعة أعوام كاملة مرت، لو ذهبـت إلـى المنصورة الآن، لبدت لعيني غريبة تمامـا، لبـدت البيـوت ضئيلة، فقيرة، يعلوها غبار تفوح منه رائحة مرور الـزمن، الشوارع غير مستقيمة، والحارات ضيقة، وأبدو أنا عملاقـا كبيرا.

أربعة أعوام كاملة مرت.

ضاعت مني، خلالها، الفرصة الوحيدة للخلاص من هذه الغربة، وبعد ضياع هذه الفرصة، ضاع كل شيء.

أشياء كثيرة حدثت خلال هذه المدة، تتحول المـرأة الجميلة، الشابة، إلى عجوز شمطاء، يولد أطفال صغار، يكبر الصبية، يصبح لهم الآن صـديقات يسـرن معهـم سـاعة العصاري الندية، تهدم أحياء بأكملها، تبنى منازل تبلغ حـد الروعة في مناطق خربة، يموت بعض الأحباء، يوارون في التراب، يصبحون ذكرى باهتة معتمة، تنغرس في زاوية من النفس، يمرض الأصحاء، يرقق المرض نفوسـهم، يسـحب

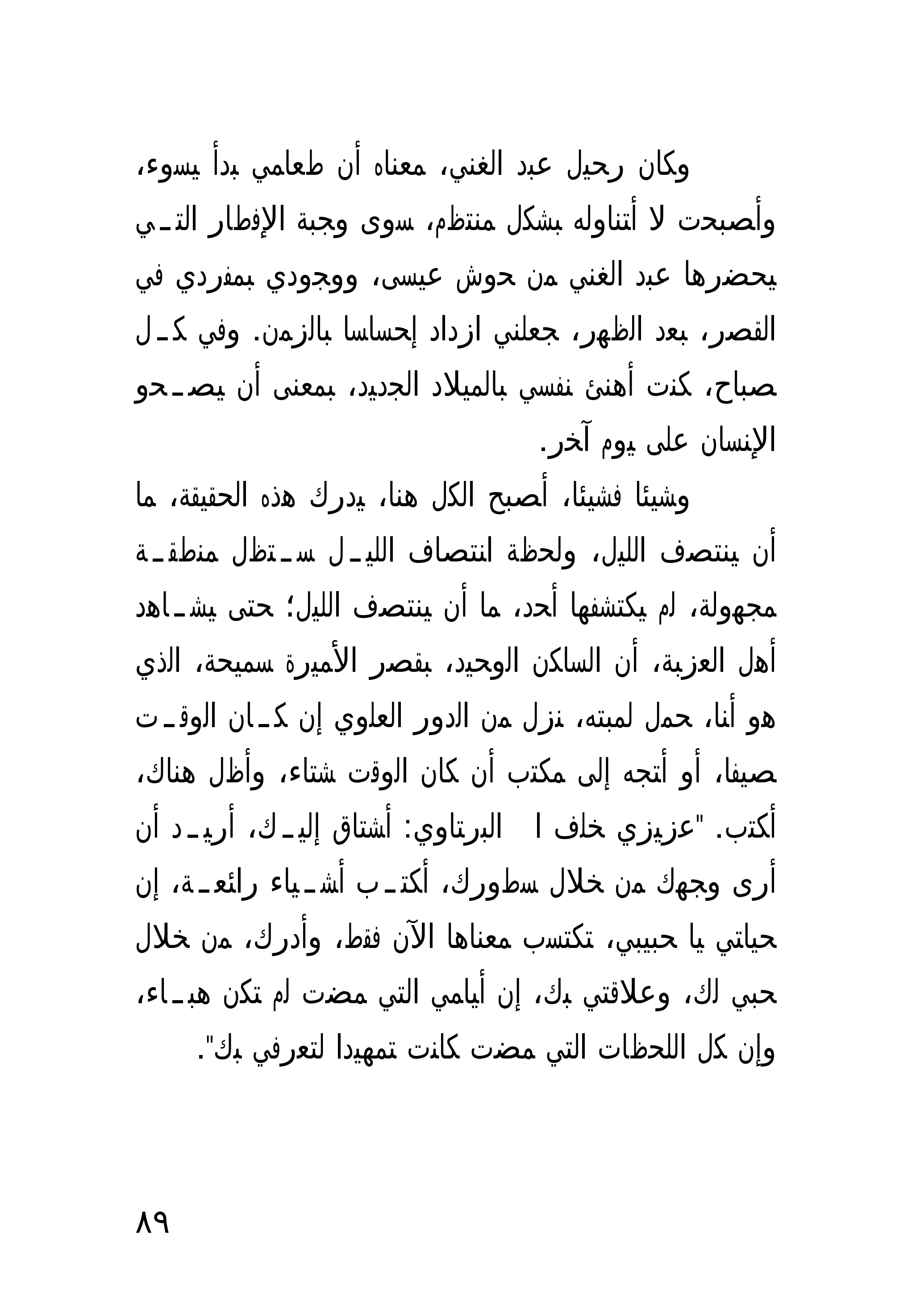
منهم دفء الحياة. وعنـدما يتـذكر الأحيـاء مـن مـاتوا، يضحكون، يقهقهون، وكأن الأمر لا يعنيهم.

حدثت أمور كثيرة خلال هذه المدة، ترهلـت أمـي، شاخت، أبيض شعر أبي، تساقطت أسنانه، كل هـذا يحـدث وأنا هنا، جالس في مكاني، والشيء المؤكد، أنه لـم يحـدث شيء مالي طوال هذه المدة، نفس الجلسة هي هي، لم تتغير، وأؤكد أنني، منذ أربعة سنوات كاملة، في نفس الساعة، وفي نفس هذا المكان، وخلف هذه النافذة نفسها، كنت أجلس هكذا، أحدق في الفراغ، وأتحسس العتمة بناظري، وأحصي أمـورا تافهة، وأنتظر مجيء الخلاص، من فتحة الكون السحرية.

- ١ -

أصبحت كتابة الرسائل هي كل اهتماماتي، لدرجـة أنني وأنا سائر في حواري العزبة، بمجـرد أن أشـاهد أي شيء، أفكر فيه، وأعده، كي يكون موضوع رسالتي القادمة، ولقد وجدت في ذلك ملاذا لي، خاصة بعد رحيل عبد الغني، فلقد تزوج وعاش مع زوجته وأمه وأختيه في حوش عيسى، وعرض علي في بداية الأمر، أن أعيش معه هناك، ولكنـي اعتذرت.

وفي الصباح من كل يوم، يحضر عبد الغنـي فـي السابعة، يفتح المدرسة، ينظفها، وفي الثامنة يدق الجـرس، ويبدأ اليوم المدرسي، وما أن تأتي الساعة الثانية بعد الظهر، حتى ينتهي كل شيء، ويعود عبد الغني إلى حوش عيسـى، وكان عبد الغني قد اشترى دارجة نصر، نصف عمر، كـي يركبها في ذهابه وفي عودته، وحاول أن يستدين مني مبلـغ ثلاثة جنيهات؛ كي يشتري الدراجة فوري، فاعتـذرت لـه بكلمات مائعة المعنى، فاشتراها بالتقسيط.


وكان رحيل عبد الغني، معناه أن طعامي بدأ يسوء، وأصبحت لا أتناوله بشكل منتظم، سوى وجبة الإفطار التـي يحضرها عبد الغني من حوش عيسى، ووجودي بمفردي في القصر، بعد الظهر، جعلني ازداد إحساسا بالزمن. وفي كـل صباح، كنت أهنئ نفسي بالميلاد الجديد، بمعنى أن يصـحو الإنسان على يوم آخر.

وشيئا فشيئا، أصبح الكل هنا، يدرك هذه الحقيقة، ما أن ينتصف الليل، ولحظة انتصاف الليـل سـتظل منطقـة مجهولة، لم يكتشفها أحد، ما أن ينتصف الليل؛ حتى يشـاهد أهل العزبة، أن الساكن الوحيد، بقصر الأميرة سميحة، الذي هو أنا، حمل لمبته، نزل من الدور العلوي إن كـان الوقـت صيفا، أو أتجه إلى مكتب أن كان الوقت شتاء، وأظل هناك، أكتب. "عزيزي خاف ا البرتاوي: أشتاق إليـك، أريـد أن أرى وجهك من خلال سطورك، أكتـب أشـياء رائعـة، إن حياتي يا حبيبي، تكتسب معناها الآن فقط، وأدرك، من خلال حبي لك، وعلاقتي بك، إن أيامي التي مضت لم تكن هبـاء، وإن كل اللحظات التي مضت كانت تمهيدا لتعرفي بك".

وفي كل ليلة، لا أدري بالتحديد متى أصعد إلى حجرتي، غفير الدرك المعين لحراسة المدرسة، هو الذي يذكرني، عادة، بموعد نومي، والغفير يعرف التوقيت. من خلال علامات ليلية، في منتصف الليل، تمر طائرة متجهة إلى الإسكندرية، لحظة مولد الفجر على صفحة الليلة، تقف فوق العزبة النجمة أم ديل، أما قبل شروق الشمس بساعة، فيأتي الكروان، من ناحية الكوم الأخضر، مرسلا صوته الشجي الجميل، ويكون لون السماء، حينئذ، مشربا بزرقة خفيفة.

الساعة التاسعة صباحا.

مجيء هذه الساعة يعني أن أسمع جرس دراجة وكيل مكتب البريد. يتوقف أمام المدرسة.

- يا حضرة الناظر، لك بوسطة.

تسرع دقات القلب، يحمر وجهي خجلًا، يقف شعر رأسي، تسري في أعطافي نشوة غامضة، رسالة إلي، خطاب، ما زلت حيا، أجري، أقفز درجات السلم، العصا في يدي اليمنى، والممسحة في اليد اليسرى، ما زلت قادرا على الإحساس بما يحسه الناس، آخذ منه الرسالة، أتحسسها.

- (متشكرين يا وزير المواصلات).

- أي خدمة يا إكسلانس.

أفتح الرسالة، أقرؤها. وعلى الرغم من أنني كاتبها، فإنني أنظر في الرسالة. وفي طابع البريـد علـى الظـرف الخارجي، واسم المرسل منه، وتبدو علـى وجهـي البليـد، أقصى درجات الدهشة.

قال لي وكيل مكتب البريد، ذات مرة، أنه يستحسـن أن أرسل أحد التلاميذ، كي يأخذ هذه الرسائل مـن مكتـب البريد توفيرا للمجهود، حدقت فيه، رمشت عيناي في دهشة، اتسعت مساحة البياض فيهما، دعني، أرجوك، أعـيش هـذه اللحظة، أنها أغلى ما في الحياة، هي العزاء والخلاص وفدية العمر الحزين، هي الدليل الوحيد على أنني ما زلت حيا، وإن الدنيا ما زالت بخير، هذه الرسائل تؤكـد لـي أن الأربعـة والعشرين ساعة التي مضت، بكل ما فيها تسمى الأمس، وإن الأربعة والعشرين ساعة القادمة من رحم المجهول، تسـمى الغد، وإننا نوجد الآن في الحاضر. اشتريت في آخر مـرة، من المنصورة، وكان ذلك منذ زمان مضى، كتابا، عبارة عن مجموعة من الرسائل، وعكفت عليه، قرأتـه، ونقلتـه فـي

كراسة من عندي، حفظت أكثر سطوره، أبعث إليك بتحيـة صافية، صادرة من أعماق قلبي المملوء إيمانا بحبك، وإجلالا لشخصك الكريم، أما بعد.

ذات ليلة، تصورت أن وكيل مكتب البريد، قد يفكـر في فتح هذه الرسائل، خاصة وأن كل الرسائل، كانت موجهة إلى الأستاذ خلف ا البرتاوي خلف ا ، وموقعه في نهايتها بإمضاء المخلص، خلف ا البرتاوي خلف ا ، وبعد تفكيـر طويل، والتفكير لم يكن من عادتي من قبل، اهتديت إلى حل سليم، وهو أن أوقع هذه الرسائل بأسماء مختلفة، وهي أسماء من عندي بالطبع، "مع حبي وإخلاصي، حبيبتك سلوى. مـع أسمى ما أملك يا معبودي، عطيات، يا خلف ا ، يـا أعـز حبيب، لك كل ما أملك، سوزان.

- ٢ -

كنت قد قررت لنفسي، ذات ليلة شتوية، بعـد زواج عبد الغني، أن أجعل من فرديتي لقبا ثقيلا، شـيئا كالأحكـام الفطرية، تلك التي تحمل فـي بـداخلها مبررهـا، تمامـا، كالأحكام القدرية الصارمة.

وفي منتصف كل ليلة، تمر طائرة منتصف الليـل، أفتح حدقتي عن آخرهما، أمسك قلبي من الفرحة، أحـاول، بعين الخيال، أن أعيش ما يحدث بداخل الطائرة "بعد قليـل" سيداتي سادتي، نهبط في مطار الإسكندرية، شكرا" ويكـون الجو مثقلا بالدخان، ورائحة الخمـر، النسـاء الجمـيلات، القادمات من بلاد الوهم والأسطورة، بـلاد الـثلج الأبـيض المندوف، بلاد الجنس المباح، يرطنون بكل اللغات.

أسمع صوت الطائرة، أخف إلى زجاج النافذة، انظر من خلفه، أتعبقها حتى تغيب عن الأنظار، وأبقى في مكاني، أحلم، أعيش أحلاما سعيدة، أساقر إلى بلاد الثلج والضـباب، حيث المدن تبدو شوارعها كأنها الأنهار الليلية، إلـى بـلاد

العيون الزرق، والحياة المغسولة بالشهد والحنين، أجلس في داخل الطائرة.

- باي، باي.

- سيداتي، سادتي، نحن الآن على ارتفاع.

وفي قلب الطـائرة، مـن خلـف زجـاج نافـذتها المستديرة، أجلس، أتغنى بصوت خافت، بمقطع صغيرة من أغنية حب قديمة، تنظر إلى، الجالسة إلـى جـواري، فـي عيونها يندا ح تساؤل حاد، عيونها في زرقة السماء الصافية، ملمس جلدها الخارجي في نعومة الحرير، أحكي لها حكايـة حب حزينة الختام.

- (كان يو سبيك إنجلش؟).

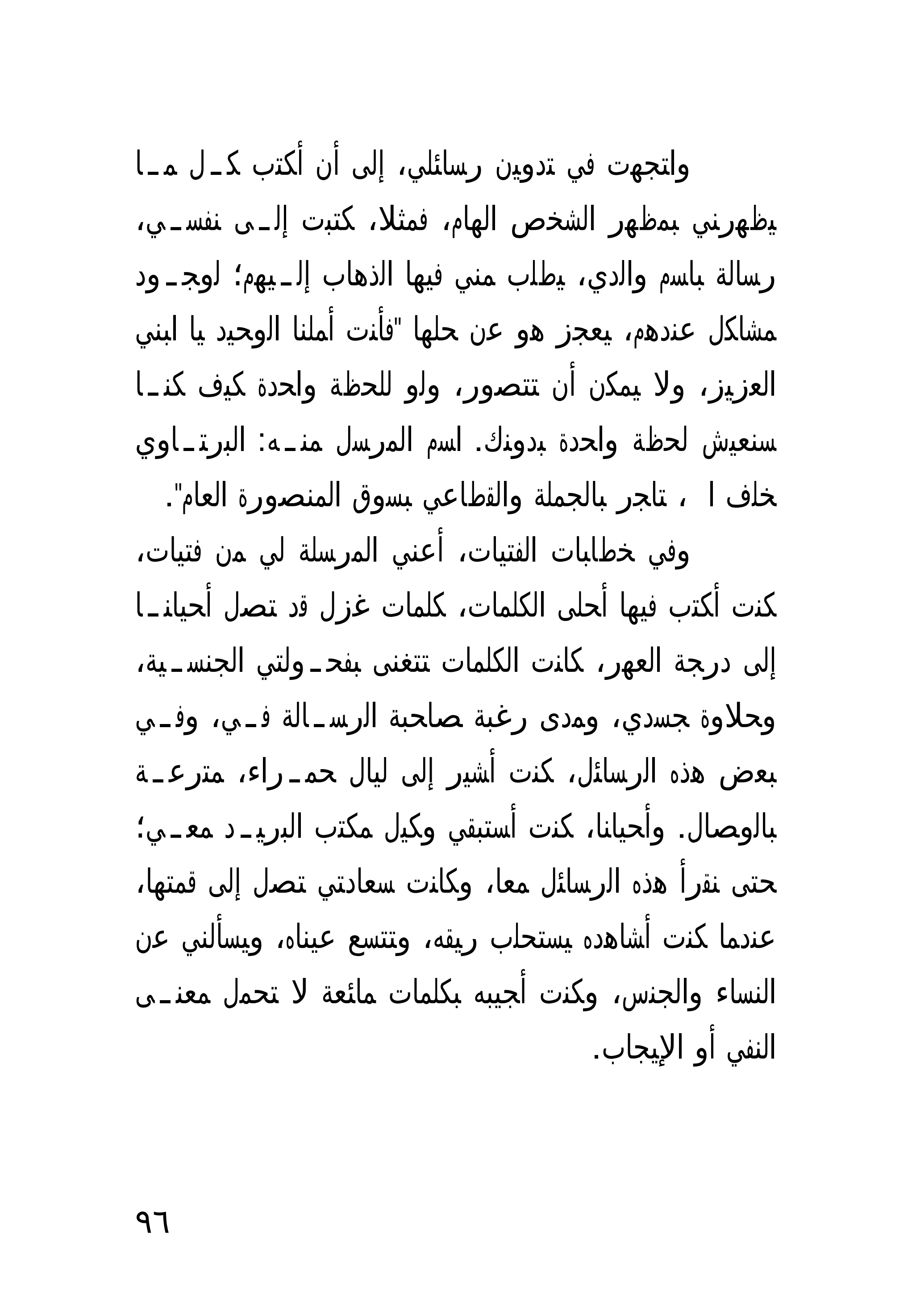
وأتحدث، أقول كلمات مبللة بالأسى، حكاية الأشواق والأحزان، وتقيم الرغبة جسـرا مرعوشًـا بينـي وبينهـا، وأحتويها في حبة القلب، أضاجعها بكل ومضات الحياة، بكل رعشات الوجود الربيعية.

غير أن هذه الأحلام، كانت تعمق عندي، كل ليلـة، ذلك الإحساس السرطاني الخبيث، الإحساس بلا جدوى مـا أقوم به، حتى الخطابات، ملاذي الوحيد، كانت تبدو كشيء لا

قيمة له، محاولة هروبية للضحك على النفس، وبعد مـرور الطائرة، تعود الأشياء إلى سحنتها الأولى، وأحلـم، أتـزوج وأنجب أطفالا في حلاوة الشهد، ثم أصحو في نهاية الأمـر على قسوة الواقع.

بدأت أكتب لنفسي خطابات، تحمل أسـماء فتيـات، وبأسماء تثير الخيال، وكنت بعد قراءة أية رسـالة، أتركهـا أمام عبد الغني، على مكتبي في الصالة، ثم أتصنع الـذهاب إلى الفصل، أو دورة المياه، أو الصعود إلى حجرة نـومي، وأعود، أجري إليه، أحاول أن أقرأ ملامح وجهـه، أتفـرس فيه، وعندما كان يصمت، ويبدو أنه لم يقرأ الرسالة، كانـت تصيبني خيبة أمل، لدرجة أنني افتعلـت معـه ذات مـرة معركة، وحذرته من قراءة أوراقي الخاصة، مع أنه لم يفعل ذلك.

وفي يوم ما، حمل إلى عبـد الغنـي، إحـدى هـذه الرسائل، قائلا وهو يعطيها لي، أنه لاحظ أن الخط المدونـة به الرسالة، يشبه خطي، بلعت ريقي، أحسست بفتور مفاجئ، وفي نفس الليلة، كتبت رسائلي بيدي اليسرى، ولم يكن يبدو الخط كأنه خطي.



واتجهت في تدوين رسائلي، إلى أن أكتب كـل مـا يظهرني بمظهر الشخص الهام، فمثلا، كتبت إلـى نفسـي، رسالة باسم والدي، يطلب مني فيها الذهاب إلـيهم؛ لوجـود مشاكل عندهم، يعجز هو عن حلها "فأنت أملنا الوحيد يا ابني العزيز، ولا يمكن أن تتصور، ولو للحظة واحدة كيف كنـا سنعيش لحظة واحدة بدونك. اسم المرسل منـه: البرتـاوي خلاف ا ، تاجر بالجملة والقطاعي بسوق المنصورة العام".

وفي خطابات الفتيات، أعني المرسلة لي من فتيات، كنت أكتب فيها أحلى الكلمات، كلمات غزل قد تصل أحيانـا إلى درجة العهر، كانت الكلمات تتغنى بفحـولتي الجنسـية، وحلاوة جسدي، ومدى رغبة صاحبة الرسـالة فـي، وفـي بعض هذه الرسائل، كنت أشير إلى ليال حمـراء، مترعـة بالوصال. وأحيانا، كنت أستبقي وكيل مكتب البريـد معـي؛ حتى نقرأ هذه الرسائل معا، وكانت سعادتي تصل إلى قمتها، عندما كنت أشاهده يستحلب ريقه، وتتسع عيناه، ويسألني عن النساء والجنس، وكنت أجيبه بكلمات مائعة لا تحمل معنـى النفي أو الإيجاب.

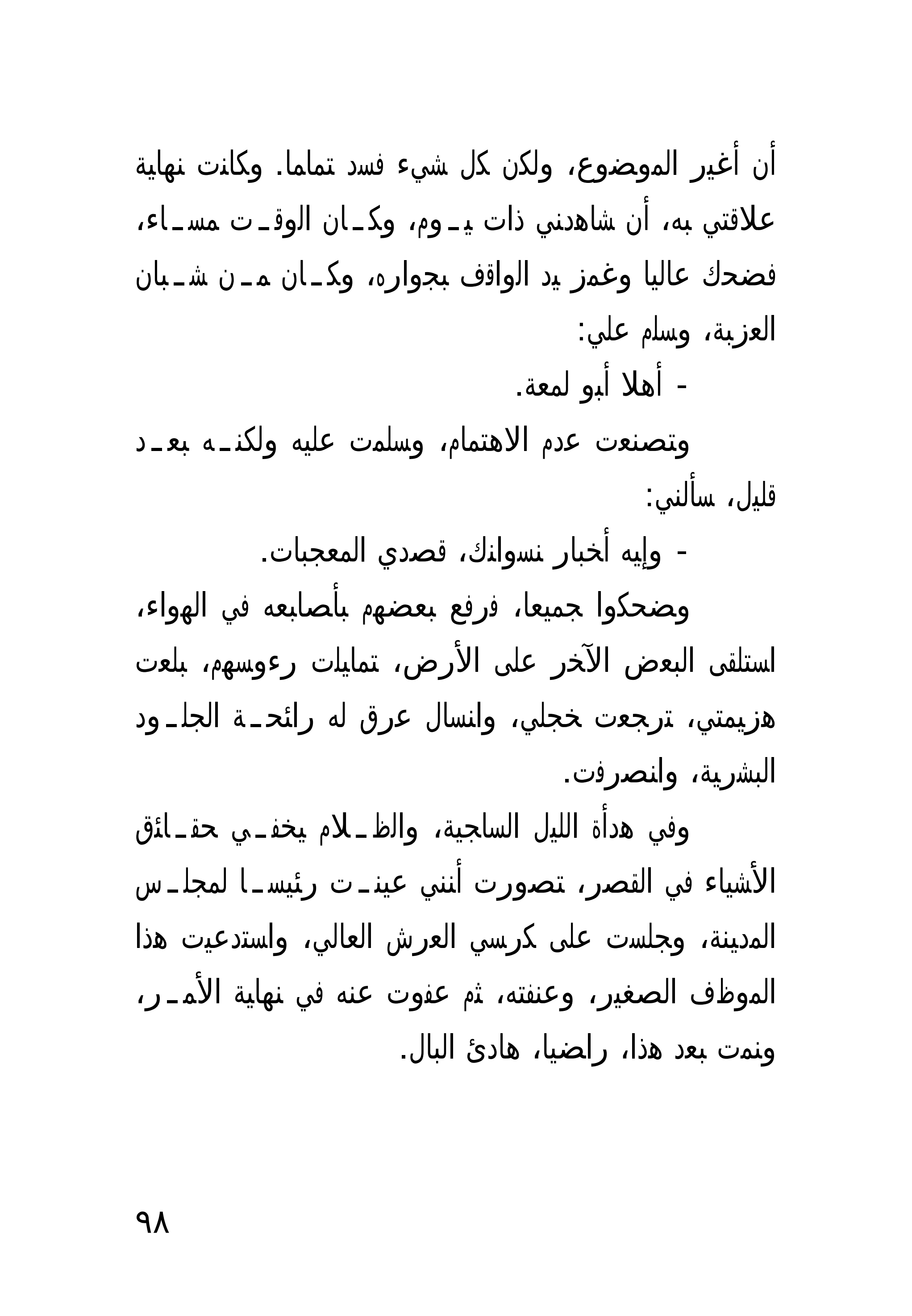
وأصبحت قراءة رسائلي معا، أنـا ووكيـل مكتـب البريد، من أحب عاداتنا، وأصبحت سعادتي، في أن أشـاهده بنفسي مبهورا، ينظر إلي على أنني رجل مجرب، أعـرف كل شيء، وأفعل كل شيء، كنت أحكي له عـن مغـامرات وهمية، وكان يصدقني، ولا يعلق على أحاديثي إلا بصيحات مبتورة، كأن يقول: "ما شاء ا "، أو يقول: "يا سلام" غير أن هذه العلاقة لم يكتب لها الدوام، بدأت أقرأ في عينيـه أولـى علامات الشك، أسئلة بسيطة كان يطرحها خـلال حكاياتنـا، معبرا بملامح وجهه عن حالة رفض، وكنـت أحـاول فـي كلمات متلعثمة أن أجيبه، أن أشرح كل الأمـور، غيـر أن الكذاب كثيرا ما ينسى في أغلب الأحيان أنه ينسـى، وتلـك قيمة الكذب، فكنت أحكي الأشياء، وفي اليوم التالي، أحكـي نقيضها، وفي اليوم الثالث، أعود فأكذبها من أساسها.

- إنما يعني أنت نسيت حكاية البنت الإسكندرانية.

- بنت مين؟

- آه. البنت بتاعت غيط العنب. اللي اسمها.

وأحاول أن أتصنع ضحكة صفراء، وتبدأ قطرة عرق باردة في الانزلاق على جبهتي ببطء شديد، وأحاول جاهـدا



أن أغير الموضوع، ولكن كل شيء فسد تماما. وكانت نهاية علاقتي به، أن شاهدني ذات يـوم، وكـان الوقـت مسـاء، فضحك عاليا وغمز يد الواقف بجواره، وكـان مـن شـبان العزبة، وسلم علي:

- أهلا أبو لمعة.

وتصنعت عدم الاهتمام، وسلمت عليه ولكنـه بعـد قليل، سألني:

- وإيه أخبار نسوانك، قصدي المعجبات.

وضحكوا جميعا، فرفع بعضهم بأصابعه في الهواء، استلقى البعض الآخر على الأرض، تمايلت رءوسهم، بلعت هزيمتي، ترجعت خجلي، وانسال عرق له رائحـة الجلـود البشرية، وانصرفت.

وفي هدأة الليل الساجية، والظـلام يخفـي حقـائق الأشياء في القصر، تصورت أنني عينـت رئيسـا لمجلـس المدينة، وجلست على كرسي العرش العالي، واستدعيت هذا الموظف الصغير، وعنفته، ثم عفوت عنه في نهاية الأمـر، ونمت بعد هذا، راضيا، هادئ البال.

- ٣ -

أنا شخص ضعيف بطبعي تجاه الأشياء.

وما يصفني به الناس هنا، من أنني صبور، ورجل يعتمد عليه، ليس صبرا في حقيقة الأمر؛ إنه نوع من الرضوخ للعالم الخارجي والناس والأشياء. ومن أهم مظاهر هذا الرضوخ. أن هناك بعض عادات تستعبدني أحيانا، وما أن يمضي الوقت، حتى أهجر هذه العادات، التي كانت محببة إلى نفسي وقتًا ما.

بدأت، في فترة ما، وكان ذلك عقب أن أنتهي من كتابة خطاباتي وإعادة تمثيل يومي من جديد، ويكون الفجر قد بدأ يثقب رداء الليل، وتكون العودة من بحار الهموم والأحزان، تنتشر زرقة خفيفة وتلف الأشياء، وتتكحل العزبة والأشجار بقطرات من الضوء الرمادي، أخرج من القصر، أتمشى، في تلك الساعة الشجية، الساعة التي تشهد مولد الفجر على صفحة السماء. وفي الطرقات الخالية تماما، أحدث نفسي، أحرك يدي، أضحك، وأحادث أناسا في الخيال. وفي هذه الساعة الرمادية الموحشة، تكون الحياة والأشجار

والنباتات والناس وصلت إلى أقصى درجات السكون، قبل أن تبدأ الحياة دورة جديدة، في حياة العزبة، غير أنني هجـرت هذه العادة، عندما حضر لي عبد الغني ذات صباح، وأفهمني أن الناس في العزبة يقولون إنني قد خاويت جنية من بنـات الجان، في الترعة القبلية، وإنني أذهب إليها فجر كل يـوم، وهناك تنزل بي إلى أعماق الترعة. وفي قصـرها المشـيد تحت الماء، أجتمع بها، أغمس خبزي في زيتها، أرتشف من شفتيها الشهد، وأستحم وأعود.

قال لي عبد الغني، وفي صوته رائحة انكسـار: إن إمام المسجد، أقسم للجميع، برحمة والده، وقبر الحسين، إنني لو امتنعت في يوم ما، عن الذهاب إليها، لحضرت هي إلي، وحرقت القصر، وجننت، وذهبت إلى السـرايا الصـفراء، حولت الأمر إلى فكاهة. قلت لعبد الغني: إن لـون القصـر أصفر، وإنه في حد ذاته خانكة كبيرة.

وفي الليل، لم أكن أخرج، كنت أتصور نفسي عمدة، أو رئيس مجلس المدينة، أو أحد المشهورين، وكنت أجلـس على كرسي، بالتحديد على كرسي العرش العـالي، واضـعا قدما على قدم. آمرا، ناهيا، موبخا، ملقيـا بالأحكـام علـى

الناس، وكنت أحضر من الكوم الأخضر، كميات كبيرة مـن المأكولات، وأقوم بعمل وليمة فاخرة، أدعو إليها كثيرا مـن الناس الذين مروا في حياتي، أنظم المائدة، وأرسل إلى منزل عمي فتح ا ، ومنزل شيخ البلد، أستاف السكاكين والفـوط، والأطباق والشوك والملاعق وأطقم الشاي، وأنظم كل شيء، ثم أصعد إلى حجرتي، وأرتدي بـدلتي الكاملـة، وأتعطـر، وأنزل، ويكون ذلك في العاشرة تماما. أدخل حجرة الطعـام، يقف الجميع، يدفعون الكراسي إلى الخلف، ينبعـث صـوت يؤنس وحشة الليالي في القصر، ويظلون وقوفا حتى أتصدر المائدة، وأجلس، وأصدر تعليمـاتي المشـددة إلـى الخـدم والسفرجية، وأشير بيدي.

- تفضلوا بالجلوس يا سادة.

وأبدأ في توزيع الطعام عليهم.

- جعله ا منزلا عامرا.

وأصحو خلال الأكل على حقيقة دامعة، إنني أجلـس بمفردي، وأصناف الأكل كما هي، وكان ذلك يرهقني ماديا، لدرجة أن ذلك كان يحدث نادرا، وكنت قبل القيام به بشهور أعمل حسابه، وأدخر له ما وسعني الادخار.

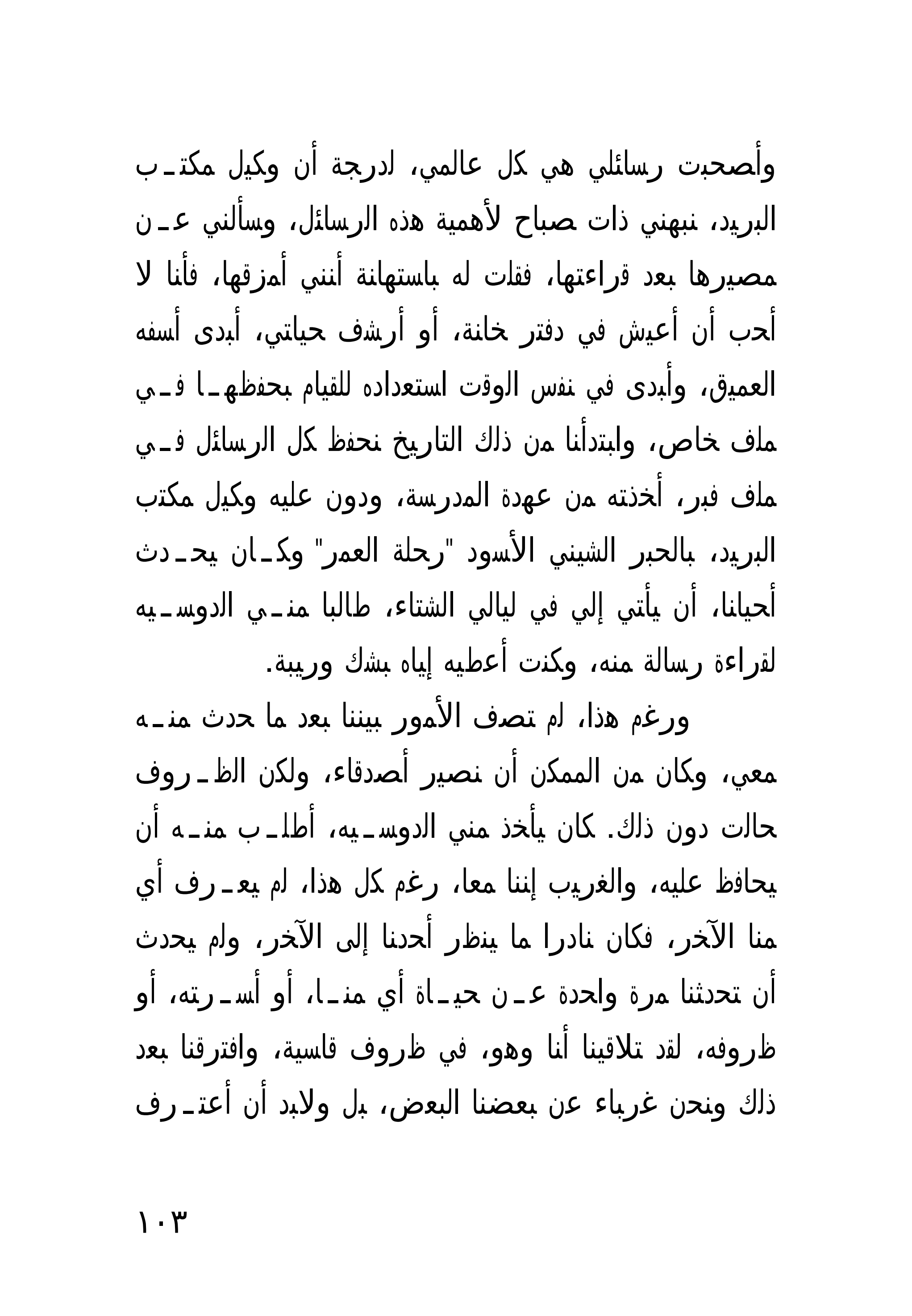
وفي الصباح، كـان عبـد الغنـي، وهـو ينظـف الحجرات، يفاجأ ببقايا الطعام، وكان يسألني عن ذلك، فأقول له، وأنا أرتدي ملابسي، مظهرا اللامبالاة، وعدم الاهتمام:

- أنا كنت عازم ناس.

ويصمت عبد الغني، وفي مرة لمحته يبتسم، ويداري وجهه بيديه. وينصرف من الحجرة مسرعا، ولكني أظهرت عدم الاهتمام بذلك، ولم أسأله عن السبب في ضحكه.

وفي الأيام الأخيرة، بدأت صحتي تهـل، واتسـعت على ملابسي، وعندما كنت أحاول النظر إلى الأشياء، فـي وهج الشمس، كنت أفاجأ بأشياء تبرق في الجو، وتلف الدنيا كلها في دائرة، مركزها أنا؛ حتى فقدت القدرة على التمييز، وأصبحت أدوخ بسرعة لأي مجهود أقوم به، ويغطي جسمي بعرق غزير، حتى وأنا جالس أمام القصر، وعنـدما كنـت أصحو في الصباح، كانت تنبعث من فمي رائحـة غريبـة، وفقدت الأشياء شكلها الحقيقي، فأضحت ذكرياتي نوعا مـن الهلوسة، وتداخلت الماضي والحاضر والمستقبل.

وأصبح كل وجودي متركـزا فـي أعمـاق قلبـي المحموم، أصبح عقلي مسرحا يجـري عليـه كـل شـيء.


وأصحبت رسائلي هي كل عالمي، لدرجة أن وكيل مكتـب البريد، نبهني ذات صباح لأهمية هذه الرسائل، وسألني عـن مصيرها بعد قراءتها، فقلت له باستهانة أنني أمزقها، فأنا لا أحب أن أعيش في دفتر خانة، أو أرشف حياتي، أبدى أسفه العميق، وأبدى في نفس الوقت استعداده للقيام بحفظهـا فـي ملف خاص، وابتدأنا من ذلك التاريخ نحفظ كل الرسائل فـي ملف فبر، أخذته من عهدة المدرسة، ودون عليه وكيل مكتب البريد، بالحبر الشيني الأسود "رحلة العمر" وكـان يحـدث أحيانا، أن يأتي إلي في ليالي الشتاء، طالبا منـي الدوسـيه لقراءة رسالة منه، وكنت أعطيه إياه بشك وريبة.

ورغم هذا، لم تصف الأمور بيننا بعد ما حدث منـه معي، وكان من الممكن أن نصير أصدقاء، ولكن الظـروف حالت دون ذلك. كان يأخذ مني الدوسـيه، أطلـب منـه أن يحافظ عليه، والغريب إننا معا، رغم كل هذا، لم يعـرف أي منا الآخر، فكان نادرا ما ينظر أحدنا إلى الآخر، ولم يحدث أن تحدثنا مرة واحدة عـن حيـاة أي منـا، أو أسـرته، أو ظروفه، لقد تلاقينا أنا وهو، في ظروف قاسية، وافترقنا بعد ذلك ونحن غرباء عن بعضنا البعض، بل ولابد أن أعتـرف

الآن، خجولا، بأنني لم أعرف إلا اسمه الأول، ولم أعـرف عنه فيما بعد أي شيء.

وهنا مات عبد الغني.

ومر وقت طويل، قبل أن تعين المنطقة فراشا آخـر بدلا منه، إجراءات لابد منها إعلان في الصـحف المحليـة، مسابقة، كشف هيئة، مسوغات تعيين، وخلال هذا، استعجلت المنطقة ثلاث مرات، وردت علي بأن هذه الإجراءات لابـد منها كي يكون التعيين قانونيا.

وفي فصل الخريف من كل عـام، تتسـاقط أوراق الأشجار، تضحي صفراء اللون، وعنـدما أتمشـى سـاعة الغروب، على الطريق الموصـل إلـى محطـة الأتـوبيس بمفردي، تثير الأوراق الجافة إلى القصر خشخشـة مترعـة بالأسى، وفي الليل عند عودتي إلى القصـر، تبـدو فـروع الأشجار، التي تساقط الورق عنها، كأنها تصاوير الرعب.

وفي أيام الجفاف من كل عام، تبدو العزبة جـرداء، حتى الأرض لا أشم فيها ساعة العصاري رائحة الخصوبة، وتبدو الترع والقنوات لا يتصاعد منها، ساعة الشروق، ذلك البخار الأبيض المألوف، وتمر الأيام، وأبحث عـن رائحـة

قطعة أرض مروية حديثا، فلا أجد إلا الجفاف الذي يتحـدد بمذاق حبات التراب الرمادية تحت الأضراس.

وينسحب هذا الجفاف على كل شيء فـي العزبـة، فينقطع اللبن الحليب صباحا وتهزل المواشي، ولا أسمع، في لحظة انتصاف الليل، سوى أنين ساقية تدور على البعد.

وفي فصل الخريف من عام، تطول أيـام الجفـاف، وأشاهد الشقوق الكبيرة في الأراضي الواسـعة، أو أرضـية الترع الجافة، وقد تلونت بلون الجير، ينكمش القلب، يـذوي كأوراق الشجر الجافة، يهوي حتى القاع، ويبدو القصر مـن خلال آلاف الأفرع العارية من الورق المحيطة به، كأنه نافذة سجين، محاطا بآلاف الأسلاك. أنظر إلى القصر من بعيـد، أدرك أنني في هذه الليلة، إن دخلت القصر، لن أخرج منـه أبدا، إلا ملفوفا في كفن أبيض، وعيناي مغمضتان، ويـداي مستويتان بجوار جسمي. والقلب مشقوق بسكين، غير أنه لم ينزف قطرة دم واحدة.

وتبدو لعيني الأشجار العارية، رصاصـية اللـون، قاحلة، وينغرس لونها الرمادي الموحش في أعماق نفسـي،

وأقسم لنفسي، أن هذا الخريف أبدي. لن يأتي بعده شتاء ولا ربيع قط.

- ٤ -

الأشياء التي بدأت كنـوع مـن اللعـب والتسـلية، أصبحت الآن قيدا ثقيلا على نفسي، فالرسائل أصبحت جزءا من واقعي اليومي، رغم أنها بدأت أكذوبة. أصـبحت أعيـد تكوين يومي، ثرثرة حياتي، ما يحدث في العزبـة، بحيـث يوافق في نهاية الأمر ما أكتبه لنفسي، وعطيات، ما أحببـت سواها، حبا نابعا من الأعماق، وإن لم أكلمها سـوى مـرة واحدة، أحببتها بكل قطرة من دمي، بكل ذرة من لحمي.

ومن العجيب أن وكيل مكتب البريد، قد أحبهـا هـو الآخر، وكلم والدها، وهو الآن على وشك إعلان الخطوبـة بشكل رسمي، ولا يزعجني الآن إلا أنـه قـرأ، ذات مـرة، إحدى الرسائل التي كنت أكتبها لنفسي، موقعة مـن، "مـن أحبتك إلى الأبد، المخلصة، عطيات".

وفي هدأة الليل، كنت أحضر عطيات، كان يكفي أن أمر أمام النافذة القبلية، التي تواجه منزلها، حـاملا اللمبـة، مرتين. فتحضر، وكانت عطيات تنام معي. علـى سـريري المكون من دكك خشبية، وأجعلها تشتم وكيل مكتب البريـد،

وأهددها بأنني سأتزوج من سواها وتبكي، تتوسـل بكلمـات ضعيفة. وأعدها بأنني سأنظر في الموضوع.

وفي لحظة انتصاف الليل، أعد عطيات بأنني سـأنفذ ما طلبته مني، سأذهب في صباح الغد إلى الحـلاق، أحلـق شعري، أسوى شاربي، وسأصلح من ملابسـي، ويمضـي النهار بطيء الخطى، أعد الدقائق في انتظار مجيء الليـل. والليل يسلمني لبحار الوهم ومتاهات الجنس. وفي كل ليلـة. أقسم لعطيات أنني في الصباح الباكر، سأذهب إلى منزلهـا، أجلس مع والدها، أشرب الشاي "أنا يسعدني يا شيخ البلد، أن أطلب يد كريمتكم عطيات".

وقبل أن أنام، في كل ليلة، ويكون ذلك قبـل الفجـر مباشرة، ويكون معي آخر خطابٍ كتبته لنفسي، أجلس علـى السرير، أناديها.

- تعالي يا عطيات علشان ننام.

أتمدد، تحضر، تنـام إلـى جـواري، آخـذها فـي أحضاني، أقبلها، أتحسس لحمها الطري، أكتشف أنها لم ترتد

قميص النوم الحريري الـذي اشـتريته لهـا[١٢]، أعاتبهـا، أحضنها، أشرب قطرات عرقها، أتذوقها على مهل.

وفي الصباح، رغم كل شيء، أصر على أن أستحم، وتصل نشوتي إلى أقصاها عندما أتصور ما سيدور بخلد من يسمع قطرات الدش تنسال على جسدي، نسيت المنصـورة، أمي، أبي، ولم أكن أسافر إلا نادرا، كنت أرسل لهم المطلوب أن أرسلته بحوالة بريدية، ولم ألاحظ من ناحيتهم تضايقا، أو شوقا لرؤياي، فسكت.

وفي وجبة العشاء، كنت أحضـر طعامـا لاثنـين، وتجلس عطيات قبالتي، إيه رأيك في الجبنـة البيضـاء "دي عايزة بيرة" من بكرة إن شاء ا ، من ناحية السجاير لا يـا روحي، أنا ما أحبش النسوان اللي بتدخن.

تداخلت الأمور أخيرا.

أصبحت معي امرأة، تخصني وحدي. امرأة جميلة لا يراها أحد.

---

[١٢]) بالفعل، أرسلت من اشترى لي قميص نوم من الحرير من دمنهور، وطبقته، ووضعته في حقيبة ملابسي، وكنت في آخر كل ليلة أخرجه، أضعه على السرير بجواري تماما.

ابتعدت عن الناس تماما. وكنـت ألاحـظ نظـرات الدهشة في عيون الناس هنا عند رؤيتهم لي. وعندما كنـت أمر عليهم، كنت ألمحهم بطرف عيني، يتغـامزون علـي، يشيرون إلي، ولكن ذلك لم يكن يعنينـي، بـل لاحظـت أن المرأة التي كانت تغسل ملابسي، وتملأ لي المياه، وتنظـف حجرتي، كانت تحضر مسرعة، وتسير ببطء وهـي تنظـر خلفها، ولكني قررت أنني خضعت للناس بما فيـه الكفايـة، وكفى، لقد آن الأوان كي أفعل شيئا ما.

وواجهت الأمر بلذة وشجاعة.

أهملت ملابسي، أطلقت لحيتي، وبدا الفراش الجديد، يقف على بعد واضح مني، وأصبحت تصرفاته تجاهي تشي بأقصى درجات الخوف مني، حتى التلاميذ انصـرفوا فـي نهاية الأمر عني، وأهل العزبة من الرجال، نادرا ما كـانوا يوجهون إلي السلام. وحدث بعد ذلك أنني لاحظت أنني فـي كل مرة، كنت أنزل إلى حواري العزبة، ويكون ذلك وقـت الغروب، أن الأطفال، وبعضهم كانوا تلاميذ عنـدي، كـانوا يتجمعون حولي، يسيرون خلفي، تزداد كثـافتهم، يكثـرون، يسيرون، أنظر إليهم في دهشة. يقولون كلمـات بأصـوات

واطئة، ألمح في أياديهم قطعا من الطوب. تطل النسوة مـن الطيقان والأبواب المواربة، ويظل الأمـر هكـذا، إلـى أن يحضر أحد الرجال، فيطرد الأطفال، ويتعقبهم حتى يبتعـدوا تماما.

- لا حول ولا قوة إلا با .

وتتحول الهمهمات إلى كلمات، والكلمات إلى قصص وحكايا.

سيعقد قران عطيات الليلة.

والعريس هو وكيل مكتب البريد.

في هذا المساء، كنت قد قررت أن أنهي كل شـيء. أحضرت سكينا أبيض حادا، حميته على حديد السلم بعنايـة، عند حضور عطيات ليلا، لابد أن يتم كل شيء. كنـت قـد لاحظت عند انصرافها من عندي ليلة الأمس انتفاخ بطنهـا. وعندما تأتي هذه الليلة، أستقبلها، أجردهـا مـن ملابسـها، تجوس يدي خلال جسدها الأبيض البض، تتأوه، أجمع فـي كفي غدائر الشعر الليلية، أغرس شفتي بين شفتيها، أستحلب لعابها، على مهل، تقف أمامي عارية، أمر بأنامل أصـابعي على أجزاء جسمها. عطيات، يا ينبـوع الحـزن، ومتاهـة

الأسى. بعد أن أنتهي منها، أمسك بالسكين، وتكـون نائمـة على ظهرها، ينغرس السكين في صـدرها، بالتحديـد بـين النهدين، تطير نقاط الدم الساخنة.

- يا حبيبي يا خاف ا .

تنغرس السكين قليلا، ينتفض الجسد انتفاضة الموت. تنسال نقاط الدم الساخنة، تنتشر على الجسد الأبيض، تتأوه. تزحف على الجسد الرائع ببرودة ثلجية. تنسحب منه حـرارة الحياة. تذبل نظرات عينيها الوادعتين. أجلس بجوارها.

بعد قليل ينتصف الليل.

بجواري حبل، وعلبة كبريت، وكميات من الجـاز. وأدرك، في هدأة الليل وأنا أصعد إلـى حجرتـي، بانتظـار حضور عطيات، أن أيامي التي مضت لم تكن هباء، وأن كل شيء يهون في سبيل هذه الليلة.

لقد مضت أيام، في انتظار مجيء شيء لـه حـلاوة الأمل، وطزاجة الأشياء التي نقضي العمر فـي انتظارهـا. غير أنها لا تجيء أبدا، وخلال تلك الأيام، كنت أنتظر قدوم الأمل والخلاص، من تلك الفتحة السحرية التي تقـع خلـف الفضاء الخريفي الشاحب.

وفي الليل، أجلس، أتحسر على الفرصة الوحيدة التي ضاعت، بددتها كالسفيه في أسواق المقامرة، وجلست أواجه الحياة بلا رأسمال.

وتمضي اللحظات، مشحونة بالقلق والانتظار، انتظار الحظ السعيد الذي ستأتي به الأيام، غير أن الأيام لا تأتي إلا باليأس، وشيئا فشيئا، بدأت الأماني تذوي في الـنفس، وفـي نهاية الأمر، كفنت هذه الأحلام في أكفان بيضاء، ودفنتها في حبة القلب.

لقد خدعت من قبل، وكفاني خديعة، فأنا لا أريـد أن أخدع من جديد. نضب القلب، وجف ماء الحياة، وبدأ شـتاء العمر الطويل، شتاء جاف يابس، لا تمطر فيـه السـماء ولا قطرة واحدة.

الليل ينتصف الآن، وعطيات لم تحضر بعد.

وهأنذا الآن، خلف البرتاوي خلف ا ، أجر الحيـاة جرا بطيئا، أعيش في وضح النهارات وعند المساء، وساعة حلول الفجر الرمادي الموحش، وفي ضوء القمـر الشـتوي المبتور الوجه، وتحت أشعة النجوم الهادئة، المبعثـرة علـى

صفحة الليل، في انتظار حدوث المعجزة، مع مجيء الربيع القادم.

حقيقة، أنا حزين، وكل شيء حولي هنا في الرزيمات، لا يجعلني آمل في شيء ما ألبتة، غير أن الناس القدماء هنا، أكدوا لي، من قبل، أن هناك أياما سعيدة قد تأتي مع الأيام القادمة، بعد هذا الشتاء الطويل.

لكن كل شيء، يؤكد لي، أنني لن أرى الربيع القادم بعيني هاتين أبدا.